رنا زكريا أبو سليمان

قربت عيناكَ...
تشق ستار الحزن

الإهداء

أحمد ربي في البدء، على تلك الموهبة التي منحني اياها، فلقد كان ملهمي دوماً.

وأهدي كتابي الى أمي، التي تخلت عن حياتها لأجل أن تمنحنا اياها.

والى من توارى تحت التراب عليه الرحمة ، الى أبي الحبيب الغالي.

والى اخوتي واخواني الذين دعموني معنوياً بلا توقف.

والى كل من ساهم في تدقيق كتابي وساندني.

والى من أحبني وأخذ بيدي .

والشكر الأكبر لوزارة الثقافة

على دعمها لي

جميعكم أقول لكم ، شكراً

مدخل

للذكرى مخالب فتاكة، تستلذ أنين أوجاعك كل مساء، لتقرع على ذلك الجرح ذاكرة غير قابلة للطي أو النسيان.

ألا توقفت لحظة... هناك صرخة

تشدني رغبة وربما لهفة لحظة استغفال الحافلة لي، وأنا أهرع خلفها محاولة استدراكها بتلويحات وإيماءات بكماء دون جدوى، وكأنها تستلذ خطواتي تلك، لا أدري إن استغفلتني لحظتها مرغمة أم أنه يروق لها بشغف مفرط تتبع ظلك خلفي عند صحوة أول شرارة وديعة لأشعة سويعات لم تصب بهلوسة الظهيرة بعد، وتستهوي حينها خلسة عيناك إباحة محظورات المساء الطويل، فتنفرج عن شفتي ابتسامة خجلة، وأبقى أشد نظري ساهمة في الفراغ، بأي لقاء آخر ستستدرجني إليه هذا المساء عنوة، حتى أرتوي منك شرهة وأدخره ليوم شاق آخر، وأغيب مع ذاكرتي، وأعلم أنه سيطول انتظاري، فأمتطي الحافلة بعد نشوة مشواري المسكر معك في باحة مخيلتي مسرعة، مودعة لحظاتي المسروقة من نفحات مساء منصرم، ويعود صدى همسك المشاكس إلى أذني:

في المساء حلوتي موعدنا.

ويبدأ بعدها النمط التقليدي الممل لمشوار رحلتي المعتاد، وترهقني الأكتاف المتنافسة والمتصارعة من أجل الصمود وعدم الانجراف إلى آخر الحافلة مثقلة بعبارات وألفاظ مبتذلة، فتقطع الأحداث الرتيبة خلوتك اللذيذة معي، بلهاث صبية، شباب، أرامل، ضحايا حب مجهول، جميعهم

تتناهى أنفاسهم المتلاحقة إلى أذني، فأشتهي زاوية ضائعة أختلي بها مع صمتي الرتيب، في جنازة انفرادية بعيدة عن طقوس التقليد المتوارث للحزن.

ويصل إلى مسمعي ضحكتها البريئة آتية من بعيد، لا تلوثها برودة المجاملات المفتعلة لزمن لم تعد البسمة فيه إلا جرعة روتينية، وعيناها اللتان لا تبصران ما وراء أبعاد عالمها المهمش الصغير.

تفجعني سذاجتك يا طفلتي، وبؤس امرأة حالمة مثلي، أدمنت ثرثرة ليل طويل، من أطلع البؤساء أن للمساء غطاءً وثيراً، وغمامة تمطر بشراهة دفء أحلام الربيع؟

– استيقظي، لا وجود لأمثالك هنا بين قطيع الثيران. (هاجس يراودني بغتة ويجعلني أتساءل، لماذا أقابل دوماً أشخاصا يصرون على قمعي واضطهادي بلا رأفة، كما تفعل تلك القاسية عديمة الإحساس، أذكر كيف نظرتُ مشدوهة إليها ذلك اليوم، وبصوت مخنوق كنت أتلوى داخلي وجعا، وهي تصُرّ على استفزازي بلا رحمة، كنت أشيح بوجهي بعيداً عنها محاولة تلاشي أي نعوت أخرى، فقد علمتني الأحداث العصيبة المتوالية أن أمرّن نفسي تدريجياً لتلقي أي نوع من أنواع الصدمات، ككبسولة أبتلعها يومياً لأنعش شيخوخة الحياة، وأي صدمة وترها أقسى من تلك التي تطعن في الصميم.

– ما زالت على قيد الحياة، ضعي لها الأوكسجين

وتتناهى إلى مسمعي أصوات بعيدة غير واضحة

– والطفلة الصغيرة التي كانت برفقتها؟

– كدمات بسيطة، أما باقي أفراد العائلة فعليهم رحمة الله

وأعود في غيبوبة من جديد، كجيفة ملقاة على رفات أبيض، كذب يا صديقي إحساس ما توهمك به هذه الأسرة البيضاء، والملاءات البيضاء، والأضواء البيضاء، والوجوه البيضاء، إنما هو بياض زائف دفعت ثمنه عربوناً خُطّ عليه بخطوط واهية سنواتك التي ستهدر من عمرك داخل شرنقة الخوف، الألم، والضياع، وكيف لي أن أنسى ذلك الحادث الأليم، أبي، أمي، وأخواي التوأم، كنا آنذاك عائدين من نزهة على شرف أخواي اللذين أطفآ شمعة عامهما الأخير، ليرحلوا جميعاً معاً يداً بيد ويتركوني في وجه هذا التيار أنا وأختي فقط نجابهه بلا مجاديف، اسوداد ذاكرتي ينهشني فتهوي إلي بكبسولة أخرى ألتقطها مرغمة فأنتفض مرعوشة، كم أكره الزحام والنظر عبر الوجوه، وكأنها بحار جامحة تموج فيك وتثير داخلك تيارات مضطربة فتخلق فيك إحساساً بالغربة، الوحدة، الهاوية، مسكينة أنت يا طفلتي الصغيرة، فطوفان محيطك الصغير نهارا يجرفك إلى عوالم لا مرئية ليلاً، فأراك تنتفضين فزعة، تفرغين بعدوانية مسلسل نهارك الفائت ولكن بأحداث مغايرة تناقض واقعك تماماً، تذهلينني بتلك الدمى المستنفرة، وأفكارك الشيطانية، أذكر ذلك اليوم الذي استدعتني به مرشدتها إلى المدرسة لتطلعني على حالها اليومي في ذلك الركن المنزوي، تحمل دفتراُ صغيراً وعلبة ألوان، وتشرد وحدها في عالمها القزحي الذي ترفض به مشاركة أترابها، مدعية أنه ملكها الخاص، وفي مجرى هذه الفوضى العارمة ننسى أو نتناسى أن للإنسان الحر حق الخصوصية، فتتعرض لسخريات لاذعة، همسات مؤلمة، وتعليقات حادة،وتصرفات تتعدى أحياناً الكلام إلى ركلات وضربات موجعة، فتتكور على نفسها هامدة باكية.

فأبكي، وأذكر طفولتها المدللة بين يدي والدي، وشقاوتها التي كانت تغيظ بها أخوي، فيزجرانها بلا فائدة.

– عزيزتي، يجب عرضها على طبيب، فانطوائيتها قد تنعكس على شخصيتها لاحقاً، ألا تلاحظين عليها تصرفات غريبة في المنزل؟

وراودني فجأة حادث ذلك المساء المتكرر، عندما تجلس أمام تلك الدمى وتجعل منهم شخصيات لمسرحية هزلية، تصفّهم أمامها كي تنتظر كل واحدة منهم حسابها، تركل إحداها، تسبُّ الأخرى حسب الدور المتقمص لكل شخصية منها، وتضحك هي بالمقابل لسماع تأوهاتهم ضحكة حزينة تعكس من خلالها مدى مرارة ما تلاقيه من صد واضطهاد نهاراً.

– أنا لست مجنونة أيتها البدينة القصيرة (تحاكي الدمية).

خذي، وتركل بقدمها دمية أخرى:– أنا لست خرساء، بل أنت لا تجيدين الكلام وتلفظ السين ثاء.

وتنظر بحنية بالغة إلى توأمين متلاصقين.

– أخوي الحبيبين، لن أزعجكما مرة أخرى أعدكما بذلك، ولكن ارجعا لكي نلعب سوياً، سأكون فتاة صالحة صدقاني.

تقف لبرهة، ثم تشيح بنظرها فوراً شاتمةً مستاءة.

– كفاكِ نظراً إليّ بشزر أيتها القبيحة، يا من تدعين بهتانا أنني وحيدة يتيمة، ها هي ذا أمي (وتضم إلى صدرها الصغير دمية تشدها إليها بحنان) تصنع لي الطعام كل مساء، نتشاركه سوياً، أخبريها يا أمي أنني ما زلت حبيبتك.

وبوداعة الطفولة تقبل خدها.

:- لا تدعيني وحدي، أنا أخاف الظلام، وأخاف من صبية المدرسة، إنهم وحوش يا أمي، يشبهون عفاريت الليل، تقبلها بدموع حارقة.

- أحبك يا أمي.

وتنتقل من دمية إلى أخرى دون توقف، إنها لا تراني ولا تريد أن تراني، لأدرك بعدها أنها ليست بوعيها أبداً.

لربما كنت بحال أفضل منك قليلاً يا طفلتي بحكم العمر ليس إلا، برغم أنني ما زلت أجهل تضاريس انفعالاتي الهوجاء، تركلني إحدى الأكتاف خلفي فأتهاوى إلى الأمام، يصلني صوت المذياع الآن نقياً واضحاً، جزئياً تخلصت من ذبذبات الأصوات المتنافرة خلفي، إلا من صوت واحد يصر على نقر مسمعي كلما وجدني وحدي، يلاحقني كظل بلا كلل أو ملل، فيه من القسوة ما هو كفيل لأن يشعلني كجمرة، ومن الحنان ما يذيب به رعشة برد الخريف داخلي.

- اسمعيني جيداً وانصتي، لا أريدك ضعيفة متقاعسة، اخترتك يوماً لأنني على يقين بأني سأصنع منك نموذجاً يحتذى به في هذه المؤسسة العملاقة، لطالما انتقتك الظروف لهذه المهمة، أرادتك أن تكوني بطلة تواجهين بتحد جميع الإعاقات التي تعترضك، هيا قفي صامدة وأريها قدراتك المبدعة، أثبتي للقدر أنك ستكسبين الرهان.

لقد زرعت داخلي يا (وديع) نبتة صغيرة حالمة، رويتها كل يوم حماسة وشجاعة، وبالمقابل كنت أحصد في عيون أولئك الذين يحدّقون بي كلما كنت برفقتي حقداً وكرهاً، خاصة تلك التي تمقتني بسببك وتعتبرني

منافسة لها فيك، معتقدة لضيق أفقها أن العلاقات بين الأفراد يجب أن تتعدى دائمًا المعقول إلى دهاليز اللامعقول.

أي ظلم أقسى عندما تجد من يزاحمك في سراب، و يصرُّ بكل وقاحة على حجز مقعد فيه وهو مجرد لا شيء، وديع، لا أنكر أبداً أنني معك تمنيت أن يتوقف الزمن، فأنا وإياه منذ الأزل كنا وما زلنا في صراع أبدي، وعداوة لا يمكن أن تحصرها حدود، وأعترف دون مداراة أنك كنت يوماً طوق نجاتي، تلقفتني بذراعين ممدودتين يوم جئت إليك ضائعة، لحظة اجتاحتني نوبة الضياع، وتخلى عني من عرفته ومن لم أعرفه.

جئتك قبل عام من الآن لا أفقه من الخبرات والصلاحيات شيئاً، فماذا بمقدوري أن أفعل،وأنا لم أحصل على أي شهادات، كنت مثقلة بضعفي وبؤسي كسيرة ذاتية أقدمها لك كرب عملي، وبالمقابل جنيت منك الكثير، كنت معلمي ومرشدي وقبل كل شيء صديقي، ضحكنا وبكينا معاً،وعلمتني أن السقوط والفشل هما أول سلم النجاح، والتجارب المأساوية العارضة لا تصيب إلا الأقوياء تحدياً لهم، أو ربما أرادت أن تخلدهم بصمة واضحة تورّث عنهم، لم تكن تريد مني شيئاً، ولم تطلب مقابل خدماتك النفسية والعملية الباهظة الثمن كأقرانك شيئاً، كنت كملاك قدّره الله لي ليضمد جراحي المثقلة، وليسكن خوفي، وليمدني بالطاقة، فأنسى بانجرافي في تياره حدة مأساتي، وأدركت بعدها تمام الإدراك معنى العدالة الإلهية، أن الله يأخذ منك بحكمة بالغة ويمنح بالمقابل عطاء بلا حدود وبحكمة.

سيدي وسيدي وسيدي، ستبقى في نظري سيداً، لقد كنت وما زلت صديقاً في زمن أصبحت الصداقة فيه سلعة مبتذلة،أو كلمة يصعب إدراك

أبعادها من أولئك الذين يغزلون شباك مكائدهم بفن متقن، تماماً كما تفعل (هي)، فالفراغ يا صديقي مرض عضال، يتفشى تاركاً آثاره في نفوس بريئة لا ذنب لها، مجرد ضحايا لمعاركهم الشنيعة، وأنا أثقلت الحياة كاهلي بمسؤوليات جمّة، ليتها تدرك تلك القاسية أنني لا أجيد فنون الفراغ، ولم أتمرسها يوماً أبداً، ولعبة الحب كما تدعي أننا نلعبها سوياً على باحة مرماك يا وديع لعبة شيقة، لعبة فن الصمود لا أجيدها أيضاً أو الأحرى لا أملك تلك الجرأة لفعل ذلك، فكفاها تجريحاً بي كلما رأتني مقللة من شأني هازئة.

– فلتبحثي لك عن رجل آخر يدفئك.

أشعر بكائنات لعينة تغزو رأسي، فالكبسولات المتلاحقة التي ابتلعتها مرغمة لم أعد قادرة على هضمها جميعاً، لا أدري ماذا اعتراني فجأة حتى تتراكم هذه الأفكار في مخيلتي، كم أتمنى أن أهرب مني إليكَ، وأعود مساءً أنتظرك في قوقعة أحلامي وأسكر منك حتى الارتواء، علّك بذلك تدفئ جسدي الظامئ للاستقرار والحب المفقودين.

مسكينة يا طفلتي، لا تجدين حتى من يسكن روحك الهائمة في الضياع، تقف الحافلة فجأة، تنتشلني إحدى الأيدي من السقوط أرضاً، أستيقظ من شرودي فأعلم أنني غصت بعيداً وعميقاً.

يتناهى إلى مسمعي صوت المذياع أكثر وضوحاً، أدرك أن البرنامج المذاع يناقش الحالات النفسية والعصبية التي تجتاح الأطفال، ويستهويني الفضول للاسترسال دون انقطاع.

– الحالات العدوانية والانطوائية التي تصيب الأطفال، معظمها ناجمة عن عادات سيئة مردها نقص الاهتمام والحب، مرحلة الطفولة

والمراهقة مرحلتان حرجتان، فيهما يريد أن يشعر الطفل بمزيد من الاهتمام، الاستيعاب، وبعض الوقت من قبل ذويه، أن يمنح فرصة للتعبير والمشاركة الأسرية، وقليل من الاكتراث لمتاعبه اليومية والنفسية.

لا تنتقد طفلك بصورة مباشرة، لا تقلل من شأنه، ولا ترخ له حبل حريته كثيراً، ولا تتجاهله فيلجأ إلى غيرك وقد ينحرف، حاول إصلاح أخطائه بطريقة منطقية، لا تتركه هائماً وحده، فيضيع من بين يديك، ويكون قد قرع جرس الخطر وفات الأوان.

لم أعد أسمع شيئاً حين طغى صوت ذلك الرجل خلفي آمراً سائق الحافلة بطريقة همجية أن يتوقف، فيعاقبه هو بالتالي متجاهلاً إيّاه ليوقفه عند أبعد نقطة عن مسربه، يستمر بالضغط على الجرس بطريقة شرسة، فأشعر بالمقابل بدقات قرعه الأليم تنقر داخلي، ليته يتوقف، لا أريد للأوان أن يتعداني، أحاول مزاحمة الواقفين حولي علني أصل إلى الباب الخلفي، كي ألتمس الهرب، والقرع يستمر، ويستمر، بعدها تتوقف الحافلة، أهبط مسرعة وأجري بأقصى سرعة أملكها علني أسبق عقرب الوقت اللعين، لأضم إلى صدري طفلتي الصغيرة قبل فوات الأوان، سأقول لها سامحيني، فغيبوبتي طالت ولم أكن أقوى على استيعابك فقد كان لي عالمي الخاص، سأجلس على درجات المدرسة أنتظرها، سأسبق الوقت ولو لمرة واحدة، وأجلس على عتباته مفاخرة وهو ما يزال يلهث خلفي، وسأقول له بتحد

خسرت جولتك.

مدخل

قد قلت لي يوماً وقد شددت
بقسوة على يدي، لا تخافي صغيرتي،
لن يجرفنا الطوفان يوماً طالما أنتِ
بين أحضاني، وكذبت، فلقد كنتَ
أضعف من مجرد صفعة ريح
عابرة وأخف جلداً من استيعاب
موجة ثائرة، وخذلتني.

منعطف مزدوج

لم أكن أعلم أن احتياجاتي من الدنيا لم تكن تتعدى مجرد وظيفة وحياة روتينية أحياها، على يديك فقط اكتشفت أنني إنسانة لست مهمشة، ولست كائناً مبرمجاً ليسد أي فجوة من فجوات الحياة، وجدت هكذا لا لشيء سوى لتلقي الشقاء والتعاسة، ببساطة تلك الكلمة وروح المعنى فيها «أنوثة» أدركت أنني هي بكامل تفاصيلها وما تحمله من أبعاد، وأنني لست مجرد ظل يسير خلفي.

من خلالك اكتشفت «الأنا» الكامنة داخلي، كنت مرآتي الحقيقية التي تجرد عيب أفكاري البالية اتجاه نفسي، وتجملها برؤيا مناقضة تماماً لما أشعر، كنت هبة ربانية قد منحتها السماء لي يوماً وغيرت رمادية الكون بعيني، لأدرك بعدها أن للحب سطوة عظيمة، أواه...من جوف عتمة قلبي أطل علي، تسلل بألوانه القزحية تجاويف وخلايا الإحساس داخلي، منحني بدفئه جدائل أشعة سرمدية، كان ساحراً وفاتناً في صياغة بداية مشوارنا آنذاك، أتذكر؟

على أحد آرائك مواقع التعارف الاجتماعية حجزت لي موعداً معك، ترصدتني كبارع يعرف مواطن ضعف فريسته، تسللت إلي بمنطق الحب

أولاً، ثم خضت معركتك بقوانينك الصارمة وأنت مغمض العينين لإدراكك تماماً ماهية ضحيتك.

قالت لي صبا ذات مرة

– إياكِ والانجراف بقلبك داخل مستنقع الآفات ذاك، إنه لا يولد سوى الانحدار إلى أعماق أعماق الهلاك.

فوجئت لتصريحها المباغت، ولا سيما أنها من جرفتني لارتياد تلك المستنقعات لأول مرة، همست لي بنشوة وسواس خبيث

– افتحي نوافذ صمتكِ واخرجي من عزلتكِ، انطلقي إلى الحياة وجمّليها بمساحيق فاحشة للرؤيا، تجردي من ضعفكِ ودعي الحياة تبرز لك جحورها الدفينة.

وانجرفت فعلاً بعدها كعمياء استعادت بصرها وأخذت تتفاجأ من هول روعة ما ترى، وبلا وعي أخذت أغوص وأغوص حتى الغرق، بحكم قلة خبرتي لا أنكر ذلك، وبت يا «راجح» مجرى حياتي لا يكاد صوتك يفارقني حتى يبكيني، وتلك الليالي التي كنت تعاقبني فيها بصمتك كانت تخنقني، أتدري أي مرارة للحياة حين تصبح قيداً متيناً لفكر مغلق؟ حين يوصد كل أبوابه عليك ليجعلك تدور ضمن حصانة أوهامه ليوهمك أنك من دونه عاجز، كنت أعتقد كوني أعيش ضمن نطاق هالاتك أن لا شيء في الوجود يستحقني سواك، وأنك متى تخليت عني فقدت رونق وجودي، فلقد أصبحت كجيناتي المتوارثة التي لا تستطيع أن تفارقني مدى الحياة، وبدأ ذلك الشعور يتسلل داخلي يوماً بعد يوم إلى أن تمكن مني بالفعل.

ذكريات، لا أكاد أتصور مدى تناقض شعوري هذه اللحظة وأنا أحمل هذه الورقة ذات الملامح الغريبة، ملامح تلك الخرقة البيضاء التي بين

يدي الآن، تعطيك نبذة شاملة عن جدارة وبراعة حاملها وتخفي بصوت مكتوم بشاعة روحه، ليتنا نستطيع أن نضيف أسفل كل «طلب توظيف» معرّف خارجي، كمحلل خاص يشرح لنا بإسهاب صفات حامل الطلب الشخصية قبل صفاته المغلفة بقناع المثالية.

المعذرة يا نفسي، أراكِ تنكرين عليّ الإسهاب بخيالي الأرعن ذاك، أعلم أنني خرجت عن طوري معك وبدأت أرهقكِ وأنتِ لم تعتادي ذلك منذ زمن، وأعلم مقدار المعاناة التي بذلتها لأجل ترويضي، وكيف لي أن أنسى وأنا جئتكِ قبل خمسة أعوام من الآن جيفة شبه هامدة، صعقتني الحياة بحقائق لا تصدق، بمترادفات متناقضة كنت لا أستوعب لعبتها معي، فقد كانت أكبر بكثير من حدود تفكيري الضيق به، كانت قد مضت على تجربتي العشقية معه ما يقارب السنة، كانت متذبذبة في الأشهر الأخيرة ما بين تنافر وتجاذب، فلقد بت ألحظ اختلاف وتيرة سمفونيته معي، بالأمس كان يهمس لروحي بشفافية رجل ناسك، ثم تبدل الهوينى لرجل ماجن، لرجل أدركت لاحقاً أن الحب لم يكن يعني له أكثر من حاسة سادسة هي الشهوة، تذكرت مقولة صبا آنفاً

– إن ما يجذبنا لتلك المواقع هو ملء نقص ما كامن في داخلنا، تماماً كاشتهاء نوع من أنواع السكاكر التي لا تطالها، فمتى تلذذت بطعم امتلاكها وتذوقتها مراراً فإنك تملّها لتشتهي نوعاً آخر لبضعة أشهر أخرى ومن ثم تدعه للجحيم، هكذا هي العلاقات البشرية للأسف هناك.

قاطعت تواصلي بك عند عتبات سلالم الماضي موظفة الاستقبال قائلة

– سيدتي هل أدعو مقدم الطلب التالي للدخول؟

– كلا دعيه ينتظر من فضلك.

فقد انتظرته يوماً ما طويلاً حتى صعقني رد فعل الانتظار، طعنني من الخلف بسهم غادر، ولكنه برغم ذلك كان لي العون لاحقاً، علمني ما جهلته طوال حياتي، علمني أن أؤمن تماماً أن أكبر هبة من الله تلك الطاقة العظيمة المدفونة في أعماقنا والتي وجدت لتلائم طبيعة الذبذبات البشرية كمغناطيس يجذب كل خير لها، وأصبحت على يقين أن الوجود حولي ما هو إلا صفحة نقية فارغة،وأنا ذلك الرسام المبدع الذي يخط بريشته السحرية أولى خطواته، فأما أن أكسوها جمالاً وإبداعاً، وإما أن أخط عليها سخطي وشقائي، وبدأت بعدها أدندن لبرمجة ذاتي المدمرة

– أنا أستحق الحياة بكامل ما فيها، أوَليست وجدت لنا نحن البشر منذ الخليقة وأبدعت لتلائم طبائعنا وغرائزنا وأحلامنا؟

من هذا المنطق فقط صممت لوحة لي شبيهة بلوحة «اللوغو» تلك اللعبة الشيقة التي ما عليك سوى أن تعبئ الفارغات فيها لتتوصل إلى الشكل المفقود، وهذا بالضبط ما فعلته،جعلت تلك اللوحة تمثل أحلامي ورغباتي، وبدأت أعبئ الفراغات فيها بالحيوية والحب والشعور الطيب بتناغم منتظم، كان يجب علي منذ البدء أن أعِ حقيقة واحدة، أنني أنا من يستحق كل الحب والتقدير، وهو ما يجب أن أَمنحه لذاتي قبل منحه للآخرين ففاقد العطاء لا يهبه مطلقاً، وفعلاً بدأت أستمتع بكل منحنى في حياتي، سواء كان حلواً أو مراً حتى لو لم يوافق توقعاتي فهو لن يكون إلا الأفضل والخير فيه لي، بدأت أتلذذ بما أملكه من أحاسيس فياضة،وبدأ ذلك الشعور يمتد حولي ليشمل الآخرين، وبت أرى نفسي منبعاً لكل ما أستحقه، كم هي عجيبة الذات البشرية، أشبه ما تكون بتيار محمل في جوفه بشحنات إما

ايجابية أو سلبية تسري عبر كياننا الجسدي، طالما أن الخير والتفكير الايجابي مدده فهو بذلك لن يتوقف أبداً عن السريان ما دمنا ننبض حباً.

ومن هنا أدركت أنني أستحق من الحياة ما هو الأفضل، أستحق رجلاً بأحاسيس مطلقة، شخصاً ليس عادياً أبداً، رسمت صورة لذلك الرجل الخارق، جسدته بكامل تفاصيله الدقيقة وأنا على يقين أنني أستحقه، وفعلاً التقيته صدفة كصدفتي يوم التقيته قبل عام من لقائنا التالي، وقد نسي كتابه على طاولة حبنا القديم حيث اعتدت كل مساء أن أندب فوقها قساوة الحياة بحرماني منك يا راجح للأبد، كانت الدموع قد حفرت على وجهي البائس تضاريس من الحزن والخذلان، اقترب من الطاولة حيث أجلس واعتذر من تطفله، كان قد أراد استرداد كتابه الذي نسيه، ولم يكن يعلم أنه نسي ضربة الحظ التي انتشلتني من بؤرة الانجراف نحو الهاوية، والذي كان سبباً لاحقاً في وقوعنا بالحب معاً، راقت لي صفحات الكتاب وما تحمله من درر نادرة، ارتفعت بنظري لألتقي بعينيه، ابتسم لي، مددت يدي لأناوله إياه، ولكن قال بعد برهة من تلاقي نظراتنا

– هو لكِ، أزال الله همكِ.

لم يزد عن ذلك شيء سوى ملامح عينيه التي سبقته شفقة على حالي، لم أكن اعلم أنني كنت أشبه بالأموات، هو ذلك الغريب فقط من أشعل بعدها فتيل الحياة في عيني، لم يهديني وردة كاذبة مثلك يا راجح، إنما أهداني منبع السر، قانون الجذب كتاباً عظيماً غير به نظرتي إلى الحياة.

كم هي جميلة الصدف حين تمنحك فرصة الامتنان لشخص وددت لفترات طويلة لو تلتقيه فقط لتعبر له عن مدى شكرك الخالص له، لكن هذه المرة كنت أتألق حياة وعنفواناً، دعوته لفنجان قهوة تكلمنا كثيراً،

وكأنني أعرفه منذ زمن بعيد، وكيف لا وهو الرجل الذي طالما أودعته خارطتي في باحتها معلماً مميزاً لا يمكن أبداً أن أتحاشاه، عرض علي الحياة بنطاق الحلم، طلب مني مشاركته روعة الحب بالارتباط، وحدث فعلاً، أصبحت بعدها لست شريكة لحياته فقط وإنما لأعماله الخاصة، لا مستحيل أبداً في الحياة فدربها وسيلة لبلوغ مرادك إن كنت تؤمن حقاً بها وبقدراتك.

ستتفاجأ تماماً حين ستراني يا راجح بعد خمسة أعوام من فراقنا أتدفق شباباً وحيوية، قد لا تعرفني لا ألومك، فهل للجلاد أن يداوي ضحيته بعد أن يفتك بها؟

مضيت غير مكترث لي بعد إعلانك صحة خبر ارتباطك وسط دوامة من التساؤلات، لماذا؟ وكيف؟ ومتى حصل كل هذا؟

لكنك لم تقوَ حتى على مواجهتي، اكتفيت بأن أرسلت لي رسالة موجزة مفادها

– كل ما جمعنا يوماً كان ساحراً، لن أنكر الشعور الدافئ الذي منحتني إياه، وتدفقت معه بلا وعي، فلقد كان شيئاً يفوق الخيال، ولكن يجب أن تدركي أن كل شيء بالنهاية «قسمة ونصيب».

أصابتني تلك الكلمات بنوبة هستيرية، لماذا دائماً عندما نخفق نصب لجام خداعنا على القدر؟

لماذا نلومه ونحن على يقين بمدى فساد نوايانا، فكيف له أن يستجيب لنا؟

أصبت بعدها بشحنات سالبة سرت عبر جسدي كتيار مدمر يجتذب كل سوء حولي، وتراجعت للوراء خطوة خلف خطوة، أصبحت نواة لاجتذاب المزيد من البؤس والشقاء لحياتي

– (جود) من فضلك دعيه يدخل.

رسمت ابتسامة عريضة ليست عربوناً لمحبة كانت بيننا فيما مضى أبداً، ولكن لأنني كدأبي أستحق الابتسامة هذه اللحظة كما في أي لحظة أخرى، دخل المكتب، نهضت لأصافحه مقدمة نفسي بمراوغة

– حياة سامح، نائبة المدير العام هنا، تفضل بالجلوس، لكن بقيت يده مشدودة على يدي لفترة من الزمن، ربما أراد بذلك أن يقيس ذبذبات نبض قلبي اتجاهه كما في الأمس، سحبت يدي ببرودة تشابه تماماً برودة قلبي، جلس أمامي كانت ملامح الدهشة تسابقه الكلام، اكتفى بعد فترة صمت قائلاً:

– أنتِ، معقول؟ غريب أن نلتقي هكذا بعد انقطاع طويل كغرباء.

– نعم، ما كنت تتوقع ذلك يوماً أبداً(فأنت اعتدت أن تكون دوماً سيداً،وما على حاشيتك سوى الرضوخ التام لحضرتك) كانت تهمس مع ذاتها.

ما كنت بحاجة لسؤاله عن حاله، يكفي أن أرى الجواب من خلال ملامح التعب، منقوشة على وجهه أضاف.

– مضى وقت طويل، حاولت خلاله المستحيل العثور عليك ولكن دون جدوى.

– حقاً؟ لم يعد الماضي يعنيني البتة.

أطال النظر بعينيها كأنه يريد أن يكذّب سمعه قال

– هل ما زلت حاقدة علي؟ أعتقد أنني حينها تركت فراغاً كبيراً بقلبك وعقلك.

– لا، أبداً، لم نكن أنا وأنت حينها على وتيرة حب واحدة، كلانا لعب ضمن مضمار مصلحته الخاصة، لو تلاقينا يوماً بقلب واحد ومصلحة مشتركة واحدة كان حبنا آنذاك وجد النور.

كنت أعلم أن جوابي آلامه، وأنني بذلك أغلقت أمامه أي باب آخر للسؤال، فلم يعد يعنيني أمره، بدا مثل أي رجل آخر تقدم فقط لإشغال هذه الوظيفة ابتسمت له قائلة

– هل نتابع المقابلة من فضلك؟

أجاب

– ولكن قبل ذلك أود إجابة صريحة لسؤال أخير، هل من استوطن حياتك شعرت بدفء قلبك بين أحضانه؟ هل أوقدت قبلاته رعشة جسدك بين أنامله؟ هل أحببته بعمق كما أحببتني يومها؟

– إن هذا الأمر لم يعد يعنيك البتة، ففرق كبير بين شخص يقتلع الحياة من جذورها الدفينة وينمقها فقط من أجل أن يمنحك إياها صافية جميلة، وشخص يقتل أي معنى في عينيك للحياة لتعيش على أنقاض ما خلف بعده من دمار، شتان بينهما فيما أعتقد، صحيح؟

أكملت بنود طلب التوظيف خاصته،ابتسمت له،رفعت سماعة الهاتف قائلة

– جود، هل من فضلك سمحت للمتقدم الآخر بالدخول، فقد انتهت للتو المقابلة.

مدخل

لقد مللت جميع القوارب المثقوبة التي مرت في حياتي، أريد قارباً واحداً قادراً على أن يبحر بي عبر البحار، والمحيطات، وتعرجات الأمواج، دون أن يتعثر بي أو أن يركلني إلى أعماق الهاوية وحيدة دون مجداف.

نساء في الزمن الصعب

اجتازت العتبات بسرعة فائقة، أغلقت الباب خلفها وكأنها تصد سرابا غباريا يلاحقها، جلست أمام الشاشة الصغيرة، التصقت بأسلاكها الشائكة،فباتت جزءا منها وبذلك فقط شعرت بأنها قطعت تيار اتصالها مع البيئة الخارجية، هو وحده فقط من امتلك قوقعة صغيرة داخلها وأخذ يتغلغل بانسياب مطلق وهي تمنحه دون حرج، شعرت به يدير قرص تشغيل ذاكرتها، وها هي الآن تضغط أزرار الإرسال عبر ذاكرة الحاسوب مباشرة إليه:

«صديقي العزيز، لقد بت جزءا مني أفر إليه من ثرثرة البشر وسخريتهم الجارحة، الكل يغفل حدود حريته وأنني كائن مغلف بالأحاسيس تثيره المؤثرات البركانية، أصواتهم إلى الآن تجتاز حدودي وأراهم من خلف الأبواب والنوافذ يتلصصون علي، ينظرون إلي بتشف ويضحكون باستهزاء.

عانس بائسة.

وصاحبتك ببساطة تعاني ازدواجية الوجود، بيئتان متناقضتان، هي في الخارج صامتة متلقية تنتفخ قهرا وذلا، لتعود إليك في قوقعتك المتوارية

مرسلة، تغرز إبرة مسكنة فيها فيضمحل الانتفاخ الذي تعانيه وجعا، بالأمس فقط كنت بارعة في تجسيد دور الدمية المتحركة، وضعت علبة المساحيق على وجهي، وارتديت ملابس قصيرة لأعرض مفاتن ساقي الطويلتين، علني بذلك أخفي أعراضا جانبية،هي مصدر لداء خطير، لقد اعتدت تلقي الأوامر، فالمنبوذ دوما يسعى لإرضاء من حوله حتى إن كان على حساب كبريائه وحقه الطبيعي في الاختيار.

العمر يا صديقي مثل عداد كلما زاد اشمأز منه الآخرون، وأصبح عبئا على كاهلهم ثقيلاً، جلست أمام ضيوفنا محنّطة، وجوههم القاسية تفرض علي الخجل، وربما أن أبقى مطأطئة الرأس ذليلة، ليس لي ذنب سوى العمر الذي أحمل عار أثقاله، حتى إن تمتعت بجسد فتان، ووجه كالنور، ومزايا أخرى هامشية لا قيمة لها في عصر الماديات، قاطعتني لحظتها امرأة شمطاء، سألتني بنوع من الاشمئزاز

- كم عمرك يا فتاة؟

ونظرت إليها بنوع من الاستهجان، وأدركت أن اللفظ سعادة، والجهل هو الحقارة بأم عينها، وتمنيت بكل صدق لو امتلكت حرية حواسي وشجاعتي المسلوبة لطردهم خارجا، وكسرِ خلفهم جرة كبيرة بمقدار ما في صدري من تأوهات، ولكن نظرت لوجه أمي البائس ووجه إخوتي يرجونني من خلف الأبواب خلسة أن احتفظ بفلسفاتي البالية، ربما لأفتح عليهم أبواب الحظ القادم، أجبت بفتور

- ثلاثون عاماً.

وشهقت إحداهن حتى جفلت، ونظرت إليهن مشدوهة وهن يتهامسن دون حياء ودون مراعاة تلك الحقوق الإنسانية، وكأنها لا تعنيهن، أنقذتني لحظتها أمي قائلة

– هكذا هي دوما ترفض من يتقدم لها، تعلمن أن كل فتاة لها فارسها المميز، وأحلامها في بناء عالمها النموذجي، ربما ذلك يفرض عليها التريث، هكذا جيل اليوم وصاحبتها بابتسامة صفراء ثم نظرت إلي، حزنت عليها لا أنكر ذلك، ثم نظرت لوجوه الغرباء، وجوه يحتم علي القدر استيعابها، وجدتها تكمن لي ابتسامة مزيفة، أو ربما ساخرة، أو حتى غامضة، لا أدري بالضبط مغزاها، لكن هي فقط فارغة من منظوري.

وأعدت النظر لنفسي باحتقار، لا أخفي عليك ذلك، ورغبت لحظتها تجريد نفسي من كل شيء، من ملابسي القذرة، العالم الخارجي، ووجوه سئمت طبعها في مخيلتي لا توحي لك بشيء، سوى العبثية والإصرار في رغبتك على نكران الحياة بمسارها العشوائي ذاك، و الانفصال الكلي عنها».

وتوقفت عن الطباعة للحظات، أخفضت رأسها وقد راودتها رغبة عارمة في البكاء، جاءها من الخلف صوت مألوف لسمعها، رفعت رأسها مستديرة فرأت موظف الإنترنت يطيل النظر إليها ومرارا يقذفها بابتسامات عابرة بين الفينة والأخرى، وضع أمامها قصاصة صغيرة عليها رقم جهازها ووقت دخولها المقهى واتبع ذلك قائلا

– المعذرة آنستي، لقد تأخرت عليك قليلا، وابتعد.

نظرت للقصاصة، لقد استغرقت الساعة تقريبا، دائما لقاء الأحبة يسرقه الوقت، فلا تشعر بدقائقه وثوانيه الهاربة.

«عزيزي، لا أعلم ما هو مصيري لكن ثق أنني سأكون بين يدي الشيطان متى سمعت رنين هاتف مفاجئ يقطعه صوت امرأة شمطاء، أو دق على باب يحمل وجهاً تعيس، وإنني إلى الآن ما زلت أتساءل كيف السبيل إلى التحرر من ورطتي هذه؟

ما زلت أنتظر جوابك»

نَهَضَت عن الكرسي بعد عدة دقائق، أعادت ترتيب ذاتها، ودمج أفكارها لتتخلص من تأثير المنوم الكتابي الذي تجرعته قبل ساعة ونصف، نهضت بعدها وكأنها أخذت حماما منعشا أزال أتربة نهار طويل، استقبلتها في المنزل وجوه بائسة مستنكرة،الروتين ذاته والضجر الرتيب، الجميع يقاطعنها ينعتنها بالأنانية،ويحملنها مسؤولية نكران نعمة الرب فيما مضى، وآلمتها عبارة واحدة

– لم يتصلوا بعد، حتى الأرمل يرفضها.

أغلقت الباب على نفسها، «كفّ عن إيهامي بأنني قوية ذات إرادة حاسمة، أين أنت الآن؟ لما أراك خارج صفي، هل أصابتك العدوى أم بت وسط الطوفان لا تقوى على المواجهة الحقيقية لطالما أن الكثرة والعدة ترهقك».

«صديقي العزيز، اعذرني، انقطعت عنك أسبوعا كاملا، ولكن هول ما حصل معي جعلني أعيش فترة هدنة لذيذة مع ذاتي، شعرت بأنني إنسانة سوية وغرقت في بحر من العشق، ونسيت محيطي وكوابيسي، وأنا اجهل حقيقة إن كنت في واقع ملموس أم هلوسات الكبر باتت تظهر علي جليا، بدأت القصة حين وصلت من أيام إلى المشغل حيث أعمل

كدأبي،أحمل همومي ولكن، هول المفاجئة أجفلتني (باقة الزهور) التي استلمتها بددت أيامي الآتية، لونت حياتي بألوان قزحية، وذلك –الكرت– أصابني بتيار خدرني كتب عليه:

– اعلم انك مجنونة، ولكن جنونك لذيذ ويروق لي.

ماذا يقصد بذلك ما زلت مشدوهة، خاصة وأنه يعلم تفاصيل وجزئيات في حياتي الخاصة، صحيح أنني طوال الأيام الماضية لم أكترث من يكون؟ وكيف ظهر في حياتي فجأة؟ اعترف أنه خدرني بكلماته التي كنت بحاجة ماسة لأن تخترق صميمي المجروح، كنت بحاجة إلى يد تداوي جرحي العميق دون أن اشعر تحت تأثير تخديره اللذيذ بأي آلام جانبية، وكنت أخاف أن أصحو من –البنج– لتعود أوجاعي من جديد، والآن أصبحت أستيقظ تدريجيا خاصة أنه انقطع عن إرسال الزهور إلي من يومين حين طلبت منه لقاءا حقيقيا، أردت أن اشكر الإنسان داخله، المشاعر الفياضة بالحب، وإلى الآن لا إجابة شافية منه، والأدهى من ذلك كله قبل إصراري على لقائه، أخبرني بأن لا ضرورة لرؤيته، فهو نفس الشخص الذي أحاكيه يوميا في مقهى (الترقب) عند ناصية شارع الهلال والذي يحمل بريدا هو

.....@yahoo.com

وفوجئت حينها،وأخذت أنظر من حولي يمنة ويسرة،من هو ذلك الغريب الذي يلاحقني إن كان ذلك البريد وهمي من فعل يدي، من وحي خيال وحيدة قانطة أغلقت حولها الأبواب فأخذت تشرعها بطريقتها الخاصة، وأنت يا وحيد لم تكن سوى جزء مني ناقص، فمن يسرق إذا خلواتنا؟

وها أنا ذا أعيش على أمل الانتظار، كم هي صعبة لحظات الترقب خاصة إن كانت هي فقط مرسى نجاتك من سراب عشت فترات تتنفس من خلاله، وأنت لا تدري اهو حقيقة أم خيال؟ هل تشاطرني الرأي؟

وأغلقت الصفحة أمامها بعد إرسالها، ونظرت لموظف الإنترنت فلم تره على مقعده كالمعتاد، ولم يضع أمامها قصاصة التوقيت تلك، نهضت لتذهب إلى مكتبه لتودع له النقود وتغادر، لم تستطع تحمل الانتظار سدى وهي تعلم حقيقة واحدة إنه غادر دون رجعة، نظرت إلى شاشة جهازه المشرعة أمامها، بدأت نبضات قلبها بالهرولة المخيفة، واتسعت حدقتا عينيها، ازدرأت رمقها بصعوبة بالغة ولم تستطع سوى الارتكاز على الكرسي، وبقيت هامدة في مكانها لكي تستوعب عمق الحقيقة، وهي لم تفارق بنظرها صفحتها الظاهرة أمامها على شاشته، إذاً موظف الانترنت، الآن فقط أدركت سر ابتساماته الغامضة، ونظراته إليها،ورفضه مقابلتها، أرادها دميته الخاصة، حتى الأحاسيس البشرية وأحاديثها المختلسة مع الذات استطاع البشر الانسياب إليها بعفوية عبر المنظار الخاص بهم وللحظة تمنت لو تهرع إلى المنزل لترقب هاتف أو دق باب من امرأة شمطاء تزف إليها خبر الموافقة.

اتجهت نحو الباب، وهي تشعر بانحلال تام، المسافة إليه بعيدة.

«صديقي العزيز.....

وهنا توقفت، لم تكمل أدركت أن ذلك كله هراء، هما صديقان فاشلان، أو ربما ساذجان فما زالت مشاعر البشر الخاصة مهنة متمرسة، إذا فلندع خلواتنا تشتعل في داخلنا ولتخمد بعدها لتبقى حبيسة ذاكرتنا»

خرجت عبر الباب، لم تغلق جهازها كما اعتادت، ولكن لم تنس ابداً أن تقطع إرسال قرص تشغيل ذاكرتها للأبد.

مدخل

عندما تصل لمفترق حب يصبح فيه التوغل إلى الأمام محال، والرجوع إلى الوراء أكبر عذاب، فقد وقعت في الفخ، وابتليت بجحيم من المرارة والبؤس والحرمان.

المعذرة... هذا الطريق مغلق

أعادت السماعة إلى مكانها فورا، لم تستطع أن تبعد من ذاكرتها ذاك المنظر الكريه.

- «أرجوك دعينا نحيا بسلام، اتركينا وشأننا»

لقد جعل منها أضحوكة سخيفة، لقد سخر منها ومن مهنتها التي كانت تعتقد فيما مضى أنها سامية وجدت لأهداف إنسانية، وها هي الآن تقع في الفخ، وتحيك في مخيلتها حججاً واهية تبرر من خلالها سبب انهزامها، ارتعشت أطرافها فجأة ارتعاشة الطير حديث الولادة المشدوه للوجود حوله، وبصوت مخنوق رددت

- تافه، لعين.

نظرت إليها أروى زميلتها في القسم ذاته نظرة أدركت رهف غموضها

- كفِ عن النظر إلي هكذا، لست المذنبة، جميعهم كاذبون، كلهم خائنون، عام كامل كان يشبعني به أكاذيب، وأنا التي كنت أعتقد أنني قادرة وبجدارة على فهم نفوس البشر، أكتب ضمن زاويتي بشغف، ولم أكن لأدري بأنني سأصبح يوما ما سطورا لقصة مثيرة، «طبيبة نفسية تسرق

أزواج متذمريها وتسلب منهم طعم الحياة»، تصوري هذا العنوان الصاخب يتصدر صفحات صحفنا.

لاحظت أروى مرارة الحياة ووعورتها الشائكة في وجه رهف التي أشاحت بقبضة يدها الثائرة اللافتة التي على مكتبها قائلة

– كلها أكاذيب، والحب أكبر أكذوبة تجرعها البشر بغباء

وعادت لذاكرتها أنامله الرقيقة تداعب وجنتيها، وصوته العذب كسيمفونية تخترق مسامعها.

– أنت هدية الحياة للبؤساء والتعساء، هبة ربانية تمنح وتمنح ولا تنقطع عن العطاء، أنا على يديك ذقت نكهة الحياة، ونفثتِ بشفتيك الرقيقتين بقايا روحي المسلوبة، أطلقت العنان لسجين غدرت به الأيام وألبسته أثواب النسّاك مرغما، بقلبك الكبير أدركت أنني إنسان وأن للقلب خفقات، وأن للجفون ليلاً حالكاً طويلاً، وأصبحتُ بكِ شاعراً مجنوناً، وأنا قبلك لم أكن قد عشت متعة الوجود، منحتني ما لم يمنحني إياه جزئي المكمل، إذا فأنا بدونك لست إنسان.

وخارت قواها فجأة، استندت على مسند الكرسي، خالجتها مشاعر قوية وحن قلبها لنظراته الواهنة

– ما زلت أهواك.

دنت منها أروى، لامست كتفيها المنحنيتين

– اجعلي من ضعفك بداية لقوة جديدة، ما رأيك بتخصيص زاوية جديدة نلحق بها قصصاً مثيرة عن المشاكل والخيانات الزوجية بدلا من

الاكتفاء بمواضيع الشكاوى والحلول الفورية، ابكي عزيزتي كما شئت فالبكاء للنفوس المجروحة مثل مرهم حاد، لكنه بعد فترة وجيزة مسكن خافض.

فبالرغم من أن ليلها ذلك اليوم كان طويلاً وموحشاً، إلا أن نهارها كان حافلا بالرسائل التي تهالكت عليها شاكرة لها جهودها في ذلك الحقل الجديد الذي أضافته إلى زاويتها، وأخذت تتابع الآراء وردود الأفعال، لقد كانت تدرك تماما أنها البطلة المجهولة لموضوع قصة حقيقية أثارت بها جدل الجميع، وتلك النعوت القاسية التي تلقتها البطلة المفتعلة إنما هي موجهة بأصابع الاتهام لها مباشرة، تابعت الحلقة الثانية

– «.... وعشت في دوامة حيرتي، لقد تأصل حبه بقلبي، فمن يمنح العليل مورفين النجاة من ألمٍ عميق، وكيف ندين القلب وما هو إلا منارة لتائه وجد دربه بعد طول عناءٍ ومشقة، قد تضللنا المتاهات و تفرقنا، تسلب أرواحنا ومشاعرنا، فتضيع القلوب ضمن طوفان الفوضى وصراع الثبات الوجودي، وقد تلتقي عند نهاية المفترق الفاصل بعد فوات الأوان، فتلتحم الأرواح التي خلقت لبعضها، فكيف بعد إذن نسلط أضواء الاتهام عليها».

قطع استرسالها رنين الهاتف، أتاها صوته باهتا

– هناك حساب لم نصفّه بعد، «بقيت مستمعة»

– إنه حساب المشاعر المستنكرة، أوليس هذا منطقك؟ بسخرية سألها، أغلقت الهاتف وهي تشعر بداخلها كأن شيئا على أهبة الثوران، عادت لتكمل

«.... لم أكن أنانية قط، قد تراودني أحاسيس متضاربة، عذرا فأنا ببساطة كنت مجرد ضحية عمياء، لا أنكر أنني معه وجدت ذاتي وأدركت

أنه جزئي المنشطر، فقد سلب مني جمود أحاسيسي الباردة وأبدلها بحب فائض، ولكن لم يطلعني قط أنه وجد منذ سنوات مضت جزءه المكمل وحصد منه براعم لم تنمو بعد، لأفاجأ بزيارة مباغتة من امرأة يانعة، طويلة القامة، ممتلئة الجسد، يظهر على محيّاها أسواط التعب والسهر الطويل، قالت لي بتوسل، وكأنها سرقت حقا لي:

– الحياة تمنح الإنسان فرصة، فإن لم ينتهزها جيدا صدقيني مصيره الندم، مثلي تماما، وأدركُ أن فرصتي قد أضعتها يوما باسم الحب ورضيت بالقليل القليل، وها أنا ذا أشقى، فهل جزائي بالمقابل أن أكافأ بالخيانة؟

أنت جميلة، والطريق أمامك مديد، فلا تربطي نفسك بآمال ضائعة وخيط هزيل حدّه الانفصال، «ثائر» زوجي، ولديه أطفال، فهل يروق لك أن تتسلّقي على سلم الحب لتبني حياتك على حساب تعاسة الآخرين؟

وتردد صدى صوتها الباكي

– أرجوك دعينا وشأننا.

صفعتني بكلماتها تلك دون إنذار مسبق، وتهاوى شيء داخلي بحدة، وتصارعت المشاعر مخيلتي، وبت وحدي أدور في حلقة مفرغة لأعود وأبدأ انهزامي من جديد.

أغلقت الأوراق المتكدسة أمامها والتي سترسلها عبر الفاكس ليتم نشرها في الغد.

وأذهلتها ردود الأفعال التي تلقتها، كانت على نقيض تام لما توقعته، فأكبر نسبة من الرسائل أيدت فكرة الأرواح المشتتة التي لا بد لها من الالتقاء يوما ما، وأن الحياة تمنح الإنسان فرصا بديلة لكنها ليست الأساس المرتجى،

فهل هي جديرة لتبني بيئة متكاملة متوازنة، وبالمقابل هل نذعن لخساراتنا المتكررة ونرفع رايات الاستسلام فنهزم دوما ضعفاء ويداس علينا، إلا أن رسالة واحدة شغلتها لأنها تحاكيها هي بالذات، منه مباشرة، حوار الأرواح المستنكرة كما ادعى، أغلقتها برفق، قاطعت شرودها «أروى» التي كانت متحمسة للغاية، فرحة جذلى تتراقص خلف عينيها

– أتعلمين عزيزتي، الكل ينتظر نهاية القصة، والفضول يسابقنا للغد، فهل أنت مستعدة لحسم النهاية؟

«..... الجميع ينتظر مصرع نهايتي بفارغ الصبر، وأنا وحدي أعيش داخل قوقعتي متحشرجة يائسة، لكل بداية نهاية، شيء واقعي، ولكن هل للقلب هوة عميقة ترمى بها ذكريات عام بأكمله؟ قد تملك الجرأة للانتحار، ولكن من يزيل تشوهاتها من أرشيف العقل الباطن؟ ووجدت نفسها تهرب بعيدا تجوب الشوارع بلا هدف، حائرة، وحيدة الفؤاد، مشغولة الذهن، كلما حاولت الفرار منه تجد نفسها تلقائيا تفر إليه بلا إرادة فقد استفحل حبه قلبها، ونقرت كلماته جدران مخيلتها

– خلقنا لبعض، وضللتنا المتاهات فالتقينا، والهروب ضعف، عودي إلي علني أغسل بقايا ما تركته تلك العاصفة الوخيمة.

تابعت المسير، ووجدت قلبها، عقلها، حتى قدميها تتسابقان إليه، ووجدت روحها تحدثها

– لست أول عازبة ترتبط بمتزوج، لا تكترثي فمثلك لم يخلق للأحزان، هيا عودي إليه، ولا تضحي بقلبك لينتشله الغرباء.

وبدون إرادة تحرك جسدها آليّاً، أوقفت مركبتها عند باب منزله، وهي تتساءل كيف أتتها الجرأة لفعل ذلك، لكنها حثّت نفسها أنها إحدى

مهام مهنتها السامية أن تتابع مرضاها عن كثب، غير أنها كانت تدرك شخصيا أنها تشخص هذه المرة حالتها النفسية هي، وما زالت تختبئ خلف كذبة واهمة تحيكها بجدارة كدأبها عند أي فشل، بتردد اقتربت من المنزل، إحدى نوافذه لاعبت نسمات الهواء ستائرها، وبفضول الطبيب المشخص اقتربت، كان منزلاً في إحدى الأحياء الشعبية، عتيقاً تصدعت بعض جدرانه، وامرأة خائرة القوى تجلس بانحناء على آلة الخياطة في زاوية شبه معتمة، وحولها طفلان صغيران لم يبلغا الخامسة من العمر بعد، يصنعان لنفسيهما ألعابا ورقية، وعاد إلى ذاكرتها فورا مشهد آلمها، جميع الهدايا التي تلقتها منه بمناسبة أو بغير مناسبة وفورا نظرت نحو أثاث المنزل البسيط، لم يكن أبدا بفخامة سيده ذي العطور الفرنسية الفواحة والملابس الفاخرة المنتقاة بعناية، لامست بأناملها القلادة الذهبية التي أهداها إياها وذلك الخاتم الذي ادعى أنه خاتم خطوبتهما، ونظرت صوب عنق زوجته الفارغ وأناملها التي اعتادت الجري وراء الخيوط الملتوية، وكأن هذه الآلة تأبى إلا أن تستنزف ما تبقى من شبابها، وتلك الخيوط المغزولة تجسد ليالي أحزانها خيطاً خيطاً، تقدمت نحو الباب الرئيسي، دقته بهلع، فتح لها أحد الصبية، ابتسم بسذاجة الطفولة البريئة لسارقة والده، فلو كان أبلغ سنا وعلم حقيقتها لربما رشقها بالحجارة ناعتا إياها

– فاسقة، لعينة.

بفتور بادلته ابتسامة خجلة، أعطته القلادة، الخاتم وظهرها، أكملت قائلة

– «.... كلا، لقد كنت أؤمن بحب بريء بلا خطايا، حب لا يخلف وراءه أي ضحايا، قد يتحمل قلبي عقوبة جريمة كان يجب أن يتحمل تبعاتها مسبقا، ولكن ما ذنب أطفال أن يعاقبوا بجريمة لم يرتكبوها»

وصل لمسمعها رنين هاتفها الجوال الذي لم يكف عن أنينه، أدركت أنه لا يزال يهرع خلفها، آلمها صوته الزاعق، فأغلقته بحركة آلية من يدها إلى الأبد.

– أرفض أن أكون مجرد نكهة في راحة كأسك المنمق.

وتابعت خطاها، الطريق أسفلها وعرة، لقد عادت من جديد للعبة المتاهات الشائكة والأرواح الضائعة، أخرجت القلم من حقيبتها، لقد كادت تنسى أن تضع في النهاية «تمت».

مدخل

(ليت عينيك تبحران بعيداً عن مرسى مهجتي، ليتهما ترسوان عند محطة أبعد عن روافد أشجاني، اذ لربما يخلو للأرق وقتئذٍ مهجعاً دافئاً في أحضان سواي، مضجعاً لا يضيره اشتعال نيران السهاد، ولا هلوسات ماضٍ ينتفض كل مساء كي يحيا برحم ميِّت نطفة تنمو من بقايا أشلائي، وتهفو كجنين حي لوعة للقائي، آه كم تطوق عيناي لما وراء رقدة أجفان النعاس، و لحلم لذيذ بليلة ماطرة أدفن فيها رأسي المجهد تحت وسادتي، فتطهر رذاذها بوخزها الخفيف على أجزائي، عفونة ذاكرة لا تمل الجري ورائي، وتحيي بأناملها المشبعة بعبق روح السماء المقدسة بقايا أشلائي).

قلوب من ورق

تسمرت عيناي بعينيكِ ذلك المساء المنصرم كما تفعلان الآن لتوهما، أتذكرين؟ فهما قد اعتادتا همس النظر، قبل خمسة عشر عاماً تمنيت في ذلك المقهى الأدبي الصغير لو أن عينيّ تبحران بعيداً عن مرسى مهجتك،وصفق لك الجميع بحرارة فهم لم يدركوا ولن يدركوا أبعاد الحرقة التي سكبتها كلماتك آنذاك، فمن لم يحقن بالألم كيف له أن يتذوق هذيان الليل السحيق؟

يا ليتك حينها يا صغيرتي تمنيت لو أنهما تلاقتا سوياً عند مخدع وجداني، فمن السخرية أن يتناجى حبيبان بالأمس كغريبين الآن، وأن لا يبقى من النظر سوى بقايا صور يلتقطانها مرغمين ليس لهما إنما لإسكات أرشيف الزمن الآتي، تماماً كعدسات الأضواء الخادعة التي تلاحقك من كل وجهة وصوب، بالأمس عندما كنت أجلس قريباً من قلبكِ أرقبك في أي أمسية أو ندوة أو مسابقة، كان الحرف من قلمك يدغدغني، وتسكب شفتاكِ الخجولتانِ في وعاء أوردتي روح الحياة، فتثيرِ في داخلي رعشة الرجولة المكبوتة، فأحتمي مني هرباً بالفراغ أتململ باحثاً في ركن عن ضجيج مفتعل فيتصدى السكون هامساً لي سوووووووو لأعود وأغرق في مستنقع عينيك من جديد، وها أنا الآن أجلس في ركن بعيد مهمش، مثل جميع هؤلاء الحضور أمامي، لا أنتظر مثل

الأمس هتافات الإعجاب أو النقد الموجه إليكِ،فلقد ترفعتِ عن ذلك، ولكن أبحث عن رحيل تلك الطفلة البريئة التي عمرها بعمر الماضي البعيد، لعلي أجد جواباً عندها طال مكوثه على عتبات اللحظة الضائعة صارخا، لماذا ؟

– كفَّ عن السؤال، فات الأوان، وإلحاحك في العتاب يكاد يرهقني، وأنت يا ساهر لم تكن تطيق آهة مني، فأبعد ناظريك عني الآن، لقد اكتسبت مناعة مع الوقت ضدهما وما عدت أكترث، فلا يخدعك ما يستبيحه النظر ولا بوح الهمسات الجامحة عبر الصدى البعيد، فكل ذلك سراب، صدقني.

– كاذبة، لا تحاولي التملص مني هذه المرة، أم أصبح الكذب بالنسبة إليك مذاقاً تستسيغينه بسادية، كيف تحجر قلبك وطاوعك على هجراني من بعد ذلك اليوم، لقد كانت ليلة ماطرة جميلة، أتذكرين؟ خرجنا لحظتها عن طورنا المعتاد، كنا كملكين نحلّق بأجنحة البراءة، نجوب الطرقات الفارغة وحدنا وكأنها روضتنا، نعاكس شوارعها الذابلة التي ما انتهكتها بالأمس سوى أيادي الاضطهاد والاغتصاب، وبرغم جميع مساوئ ما تركه الاستعمار البشري اليومي على جسدها الهزيل، فهي ما زالت تقاوم، مثلكِ تماماً، وكأن تلك الزخات وحدها أدركت عمق وجعها فهطلت لتغسل دموعها الحزينة وتطهر أرضها من أتربة بشرية مشبعة بالعفونة، كنت أراها تجذبنا إليها كلما حاولنا الابتعاد تقربنا بريحها الزاجرة، ربما لوهلة اعتقدت أننا مجنونان فراقت لها وداعة الجنون على ظلم رجاحة العقول وشعرت يا رحيل بالأمان معنا، كالأبله للحظة اعتقدت أننا بذلك خلدنا سوياً والى الأبد، وهل يلام الأبله لضيق أفقه، وطيش انفعالاته؟

ضحكتِ بملء وجهي ضحكة ما زالت تطن بمسمعي، اعتقد ت أنني أمازحك وأن تأثير رذاذ الأمطار ربما أخذ ينقر على باحة ذهني بدلاً من نقره على الطرقات، أثنيتِ مصفقة بحرارة أدائي التمثيلي البارع حين جثوتُ على إحدى ركبتي والتقطت يداك الصغيرتان المتجمدتان، قبلتهما بعمق الظامئ الذي وجد بغيته بعد جفاف مرير، وتلاقت نظراتنا الهاربة لوهلة خطيئة راودتنا، وغاب كل منا بأفقه البعيد سارحاً، وحدكَ كنت تعلمين أن الأحلام تتلاشى، فآثرتِ الاستيقاظ قبل الغوص عميقاً في جرف الانهيار، كنت ناضجة تحسبين خطواتك المقبلة بعمر امرأة هرمة غزت التجارب صفحات عمرها الطويل، وتركتني أجوب وحدي دهاليز أحلامي ركناً ركناً بنشوة الانبهار، أملأ صفحاتي البيضاء بتجارب طفل صغير أجدب.

وبالرغم من أن كل شيء فات، لا تنكري صغيرتي مدى شغفك إلي ذلك المساء المنقضي، حين لامست شفتاكِ الجامحتان وجهي،وأخذت تلعق بوداعة حبات المطر، فاستثارت تلك للمسة قبلتك الدافئة فانهمرت بغزارة تشاطرني شراهة ولعي فيكي، فتملكتني رعشة الغيرة العمياء وسبقني هلعاً قلبي إليك صارخاً

– حوريتي الجميلة هل تقبلين الزواج بي؟

مسه ذلك التصفيق من كل صوب بصعقة جعله يجفل فجأة ويدرك أنه غاص في جوف الماضي بعينيها بعيداً جداً، ووجد الجميع من حوله يترقب بفضول، ليدرك أنه فاته مشهد ما، فرماها بنظرة سائلة حائرة غير تلك التي كانت بينهما منذ هنيهة.

– جواباً على سؤالك، نعم، أهدي كتابي هذا إلى من حجز لي طوال الماضي مقعداً وثيراً في جحر قلب ملأه شغفاً لي، فتخليت عنه مرغمة لجهله

حقيقتي، فآثرت الهرب لحظتها باحثة عن حياة صنعتني الآن، ومنذ ذلك الحين وحتى الآن ما زلت أنبش في الماضي حسرة عن مقعده المهجور، الذي توارى منكسراً خلف غبار مشوار العمر العتيق.

– سيدتي، هل نفهم من ذلك أن عدم زواجك إلى الآن برغم ما تتمتعين به من جمال وجاه هو حب قديم ما زال يطاردك إلى الآن؟ وان كان كذلك، باعتقادك ماذا سيؤول إليه مصيره، فعلى ما يبدو أن الصحافة تغاضت كثيراً عن حياتك العاطفية، لا نعلم ان كان ذلك مقصوداً أم هي رغبة منك في التعتيم التام، فما هو سر ذلك الغموض؟

توقفت للحظات، فللصمت أحياناً خصوصية يجهلها البوح،لأنه يلامس خفايا إحساس وعر يخصك وحدك لا غير، لا يحق للملأ مشاطرتك فيه خوفاً عليه من الضياع خلف وشاية ثرثرة هوجاء، فلماذا أراكَ برغم أنفي تحاول التلصص بأسئلتك الحرجة إلى أعماقي، بحق شرعية تدعونها «المشاركة العامة»، وأدعوها أنا «بالتطفل الخاص»، أوليس لطقوس الحب يا سادة حرمة يجب أن تصان؟ وللعشق جسد غير مباح؟

أأبله أنت حتى يخيل إليك أن مثلي ترضى بالحرمان، وتنكر تلك الفطرة التي جبلت عليها البشرية من حب الشهوات والذات؟

أتنكر أن لليل على جسدك الهزيل أيادي وحشية الملمس تؤرق هدأة مضجعك، وتستبيح أنين خوفك بلا رأفة؟

أنا لست قديسة، أنا مثلك ومثله ومثلها، أحتاج إلى صدر منيع أدفن فيه رأسي المثقل، والى ذراعين تجدفان بي خلف كواليس كوكبنا هذا، وحدك يا (ساهر) اجتحتني فيه بلا إذن، وفرشت لك في قوقعتي فراشاً مخملياً

واستبحت لنفسي عرائها كل مساء في العاشرة، أتسلل إليك فيه خلسة أضيء شمعة لنا، فتتلاطف بدفئ حرارتها جسدينا ويتراقص بجنون مطلق على سمفونية نغمات شرسة، فنطلق العنان للطفل المتوحد فينا، تهمس في أذني بكلمات تدغدغني، تثير رعشة جسدي، ولهفة لأن تجتاحني بعنف همجي، تكتسيني فنصبح جسداً واحداً وروحاً واحدة.

هناك حيث كوكبنا بكينا سوياً، سهرنا مع عزلة الليل اليتيم وكمانه الحزين، تحررنا بلا قيود، تخاصمنا وتجادلنا، كم هجرتني ليلاً لأبوح إليها شاكية، (سهر)، تلك التي آوتني لحظة هرعت جرياً إليها ذلك المساء مكسوة بالأمطار، أنتفض، لوهلة يخيل لمن يراني أنني أرتعش برداً،وأنا كنت أرتعش عشقاً،لا أدري أكنت في قمة سعادتي أم هو فزعي من مجهول لم أعدّ له العدّة بعد، جاء بغتة وصدمني، وأنا يا حبيبي أضعف من صعقة المفاجآت، رميت نفسي بين أحضانها وأنا لا أكاد أتمالك ذهولي، تلفّظتُ بعدة عبارات سريعة ومتداخلة،أحاكي فيها ذاتي مبهورة، صرخت

– سهر، أنه يحبني بحق، يعشقني بجنون

أحضرت لي ملاءة وأدفأتني

– على رسلك، هدئي روعك، حتى أستطيع فهم ما حصل.

– جثى على ركبتيه كفارس يشبه تماماً فرسان القرون المنقرضة، التقط يدي وقبلها طالباً مني الزواج

بان على محياها الدهشة

– من؟ أتقصدين (ساهر)

وتلألأت الدموع متراقصة ثم جثت على وجنتي شبه حائرة، صفعتني سهر بكلماتها الصاعقة

– انهضي، كفاكِ أحلاماً، كنت أخاف يوماً عليك الصدمة القاتلة، هذا هراء، كله هراء، عيشي الواقع الحقيقي، ساهر لا يناسبك، فصلي ثوباً آخر بعيداً عن زخارف العالم الآخر، ذاك عالم لم يخلق لنا لأننا ولدنا على هوامشه، خارج شوارعه الفارهة، أم تريدين إعادة اللعبة اللعينة التي بهرت بها والدتك، فإلى ماذا آل مصيرها غير عتبات الجنون، استيقظي.

وأخذت ترجّني بقوة لتزيل تلك الرغوة الفاسدة التي تسد طريق تفكيري السديد.

– توقفي، توقفي أرجوكِ، ألا تليق بنا الحياة؟

– بلى، ولكن ليس من زاويتك، انظري إليّ كيف أعيش، لا ينقصني من الحياة شيء، أتلاعب بها كيفما يحلو لي، لحظة فقط تحررت من تلك البائسة الذليلة التي استباحها زوج والدتها لأغراضه الخاصة، يكفي الآن أنني أستبيح ذاتي لذاتي، أعلم أنني سلكت طريقاً محرماً وجعلت من جسدي سلماً أصعد به إلى علياء الحياة لأحيا كغيري، ولكن الصدفة لم تدع لي الخيار وإلا خسرتها إلى الأبد، وأنا الآن أعرض عليك مفاتن الحياة ولكن بمنطقية، البار هنا بحاجة إلى راقصة، لديك مؤهلات الجمال والجسد الممشوق، دعيه ينطق فكل جزء فيه آهة مكبوتة، دعيها تتفجر فتبدع.

– كلا، لا يمكن، فأنا ملكه فقط وليس ملك العامة، لن أخونه أبداً.

– هراء، هو لا يعلم عنكِ شيئاً سوى تلك الطفلة البريئة، لو علم حقيقة بيئتك المضطهدة لنبذك كما تنبذ القطط هنا في حارتنا، هل تملكين

الجرأة لإحضاره هنا؟ هل ستخبرينه عن والدك الشارد الذي هجرك مذ كنت طفلة صغيرة وتركك لأنياب عجوز شمطاء؟ عجوز لا تكترث سوى لجني المال حتى على حساب جسد زوجة ابنها الوحيد، انهضي وراجعي شريط حياتك البائسة، أنت حتماً في رزنامة حياته صفحة مآلها النسيان، فكري جيداً، نحن لا ننتمي لذلك العالم فلغته حرمت علينا تحريماً أبدياً.

أشعلت كلماتها تلك شرارة قوية هدفها مس قلبي مباشرة، وتمنيت لحظتها لو أنها قتلتني بحق وليس ببضع كلمات جارحة، وإنما بأي شيء حاد حولها يصيب قلبي فأنعم حينها براحة أبدية.

وأي راحة تلك التي ينعم بها البؤساء، لماذا من حولنا دائماً يحاولون جاهدين استئصال الفرح من منابته، بأي حق امتلكوا تلك الشرعية التي ادعوا أنها تجيز لهم فصل المشاعر، وتوزيع الخواطر؟؟

وتهت داخل نفسي لا أعرف من أنا، كل شيء حولي ينبذني، كل معلم أجتازه عبر الطرقات يلوح لي بشموخ ظاهر فيشعرني بمنبت امتداده، وحدي فقط شريدة بلا امتداد، لم تعد أجنحتي المرهقة تسعفني ولا المدى برحبه الفسيح يشدني، قاحلة الفؤاد، مسلوبة الحس، رهينة العدم، في غياهب العتمة التمس دربي، وبلجة الخوف أنكرني صوتي،فبدأت أقتلع حواسي فعبؤها بات يثقلني،وأدركت أني في معترك الحياة المحصنة أجابه طوفانها بجذور هزيلة ما زالت في طور النضوج، يؤرقني خنوعي، أحاول أن أقاوم غرقي، بلا جدوى تلاحقني ضحكاتها الساخرة من كل صوب، أشدُ الخطو بعيداً عنها، ولكن رنين صداها يتعداني واثقاً

– كفاك مقاومة، هلمي إلي.

وتلاقت نظراتنا يا ساهر مرة أخرى.

-لماذا ترمقني بهذه الطريقة الغريبة؟ على ما يبدو راق لك السؤال، أرى اللهفة في عينيك تقاوم سيطرتك المتزنة، لقد أصبحت أكثر نضجاً وبرودة عما كنت عليه سابقاً، أتذكر؟

مجرد صدفة، لم يكن الزمن مدعواً على موعد معي لاحتساء فنجان قهوة أبداً

كنت أذوب قرص السكر شاردة في كأس قهوتي كأنني أذوب نهاراً طويلاً وبائساً مع الشقاء، فالخيار للمغلوب على أمره حد فاصل بين الموت المنمق البطيء أو الموت المشوه الذليل، فأيهما تعتقد آنذاك كان ملاذي؟

أنت كنت لا تأبه، مثلهم تماماً، مجرد أرستقراطي بقلب أجوف، صانع خيار، مثل أقرانك، تقصد ذلك المصنع الساخر حيث نعمل، لترتق تلك الرجولة الظامئة من جسد امرأة نازفة، تخرس بعدها أنينها المضطهد ببضع وريقات تسكبها ثمناً لمتعتكم البرجوازية، أنتم وما بعدكم للجحيم.

ذلك المسلخ البشري الذي سحق أجساد فتيات كثيرات أصبحن بعدها في جيوب المجهول، كان احد خياراتي، أن أمتع مسخاً أرستقراطياً على طريقتي بثمن باهظ، خرجت لحظتها من مكتب مدير الإنتاج والتغليف مشدوهة، تلقفتني سهر وأنا على وشك البكاء

- سأترك العمل غداً، كلهم أوغاد استغلاليون.

- غبية أنت، أترفسين نعمة تحلم بها أي فتاة هنا فقط لو كانت تملك نصف ما تملكين، أم يروق لك عيش الهوان الذي نحياه، انهضي وانظري

لنفسك وأمك وأخويك الصغيرين، سوف تنتشلينهم من حياة الفقر في ظل جدتك، لا تنسي أن الحياة فرصة، فلا تفوتك وإلا ندمت مدى الحياة.

على ما يبدو كنت آنذاك قد أطلت تحريك السكر في كأسي، فقد كنت أحلل فلسفات عصر متمرد، وكان لا بد لي من النهوض كما قالت لي سهر يومها لمجاراة لغة العصر ذاك، أن أعيد صياغة دورة الحياة البذيئة أن كان لا بد منه من مصطلح بدورة تحررية قد أجازها القانون البشري وبالإجماع، كي يناهض التخلف السلوكي للمجتمع الدوني، فالشريعة الدنيوية ككفتي ميزان يجب أن تتصالحا، ويتساوى كل منهما حسب مؤهلاته، فصانع القرار تتأرجح كفته بسلطته المالية المطلقة، والآخر عبد مسير عنده كي يحرس له سلطته العظمى وبالسوط إن لزم الأمر، لا أدرى لمَ أنا ما زلت متخلفة كما أطلعتني سهر، وأني أسحق مستقبلي بيدي وأذم بعدها الزمن المسكين الملام دوماً بضيق أفقنا نحن البشر وقسوتنا معه، كم هو مظلوم مضطهد، وأنا أملك ورقتين باهظتي الثمن قد أساوم بهما وأكفل بعدها مسيرة اللعبة حسب منطقي أنا.

صدقت سهراذاً حين أجابتني على سؤالي

– وكرامتي كامرأة، أليس لها من يصونها؟

ومن تعدى كرامتك أيتها المغفلة، كلاكما يملك سلعة غالية من وجهة نظره، والحياة سوق لهما ومصالح للمبادلة، تقدمين على ساحته فن استعراضي، وهو من طرفه يقدر ذلك الفن العظيم بأغلى ما عنده، هذا هو مبدأ الحياة صغيرتي، عندما تكبرين سيستطيع عقلك حينها إدراك مغزى مفاهيمه المعقدة نوعاً ما، خذي قسطاً من التفكير، اهبطي الآن إلى الاستراحة وفكري بما قلته لك للتو، وفعلاً هبطت حينها، ولم أكن أعلم

أنني اهبط إلى حتفي العاطفي معه، فقد كنت ضائعة وحيدة أتخبط بلجج ضارمة، ترميني موجة من الظنون لتتلقفني موجة أخرى من الضياع، حين باغتتني فجأة كلماته

– ألم تنهي مداعبة كأسك بعد؟

دغدغت مساماتي رائحة عطره الفواح، أيقظَ في جسدي لحظتها رعشة برخامة صوته العذب، وبعفوية طفولة ساذجة رفعت نظري إليه، وتلاقت نظراتنا، لا أدري بماذا كانت تسرح لحظتها في عمق عينيه، لكني بقيت أسبح في عمقهما طويلاً برغم أنني لا أجيد فن العوم، ولا أنكر ذلك الإحساس الجامح الذي تملكني لخطيئة بريئة، أن ألقي برأسي المثقل على صدره الفسيح وأبكي عميقاً دون انقطاع، بقيت متسمرة بعينيه، لا أدري كيف ارتفعت ملعقة السكر، ولا كيف خانتني الكلمات تلك وتحررت ناطقة

– تفضل سيدي ملعقة السكر.

كنت طفلة في السادسة عشر من العمر، لم تكن التجارب قد استدرجتني بعد، إلى أبواب اليقظة والنضوج، اعتقدت أن التجربة الحقيقية هما صدره الشامخ وعيناه المفترستان، ولا شيء بعدهما يستحقان الجهاد، وخانني بعدها تفكيري، كان لقاؤنا مجرد صدفة، واحتسى بعدها القدر معنا رشفات قهوة وأدمنا.

كفاك طعناً بي، فقلبي لم يعد يقاوم سيول عتاب عينيك الواجمتين، أرجوك أطلق عنان صمتهما، تحرر فسجانك أعلن استسلامه و بات خائر القوى، واهن الخطى، فحطم قيودك وتمرد

– سيدتي ألن تجيبي؟

- عفواً؟

- هل أعيد سؤالي مرة أخرى؟

زفرت آهة عميقة وأجابت

- الحقيقة سؤالك وضعني لهنيهات بموقف مع نفسي مؤلم، صعب أن تدرك بعد فوات الأوان أنك كسبت كل شيء، مال، شهرة، كرامة، وحياة، لتثبت لكل أولئك الذين حاولوا إيهامك أنك ببساطة لا شيء، مجرد حثالة وضيعة على هامش مجتمع فاره، لا قيمة ولا مكان لك فيه، وبالمقابل سحقت أثمن ما في الوجود «وداعة حب بريء»، نعم لقد فات الأوان وانتهى، فلقد أعلن القاضي ومنذ زمن بعيد الحكم، فلم يعد قابلاً أبداً للاستئناف.

- كفى تعليقاً لخطايانا على حبال تبريرات واهنة، وكفاكِ غزلاً من خيوط الحب دمىً، لتلائم فقط مسرحاً دامياً لمنظومة ما في فكرك، لم يكن الحب يوماً مجرد حروف أو سطوراً أدبية تعتقدين أنك تخطينها لكتاب حديث على وشك الصدور، هو أسمى من ذلك، لا يستطيع أمثالك الدفء به لأنه خارج نطاق إحساسهم.

شدهها ثورة بركانه الهادئ فجأة، ليعلن ذلك السجين أن الهدنة بينهما قد نقضت، وأنه استطاع اكتساب روح خارقة على مر السنين، وما يزال سيل النظرات بينهما متقداً، حتى حين صرّح المستضيف معاتباً وراجياً الحضور عدم تلويث اللقاء بأية مداخلات مفاجئة دون سابق إنذار، لكن...

- لا ألومك أبداً

- سيدتي لست بحاجة الى الرد الآن

والتفت المستضيف إليه واجماً

– أنتَ رجاءً لا مداخلات، واحترم حرمة اللقاء لآخره

نَظَرتَ للمستضيف معاتبة إياه

– أرجوك لا تقاطعنا، دعنا، فأنت تجهل الحقيقة كاملة.

كم هو شعور مرير أن تلتقي صدفة من أحببته يوماً تحت عصف التبريرات والمعاتبات ويود جزءً وحيد داخلك أرعن أن يهرع إليه، إلى حضن لطالما أودع خياله الجذل فيه دفء وحنان لذة اللقاء ويسكب في ملء جوفه الضحل دموع مرارة الحرمان

– لا يا ساهر ليس هذا ما خططته يوماً على ورقاتي، ولم تكن أرض معركتي قاسية علي إلى حد أن أشهد عليها رفاتي، فليس بإنصاف منك أن تطعنني غدراً لذنب ما اقترفته وعلى باحة وريقات، اعذرني،فهذه ملحمة شيطانية أكبر من أن تعاديها أسلحتي الأنثوية البدائية.

– صدقتِ، دائماً الأنثى هي الضحية الوحيدة على صفحات معاركك ضده، وهو وحده الملام، وحده ينبغي عليه أن يرفع شارات الاستلام أمام إمبراطوريتك العظمية يا سيدتي المضطهدة، فلا عجب أن تستائي إذاً مقاومته، فهو التمرد بعينه، وسحقاً فسحقاً لعواطفه المخبولة تلك، هي لا تعنيك أبداً، فنصيبه دوماً من شفاه أقلامك المثقلة تحاملاً عليه، حقداً وكرهاً، وددت لو جاريته يوماً، وجلست على عتبا ت قلبه النازف متأملة، أوليس هو كائن بشري؟

هل حاولت يوماً أن تتجولي بين ردهات عواطفه لتدركي معنى إحساس الجفاف الوجودي حوله، لحظة أن يعلن الحبيب دون سابق إنذار

موته الأبدي فيه؟ هل تابعته كما تابعت يوماً وبأمانة حقوق نشر كتابك الذي أعلنت فيه جنونه الرسمي دون حتى أن تملي عليه حقوقه كمريض؟

هل ذرعت الشوارع بحثاً عن متشرد فقد ضالته في الحب، وشرع في الطرقات يجوب البيوت والمشافي،المقاهي والزقاق بحثاً عنه دون جدوى؟

هل جلست كما جلس هو، على عتبات مفوض البريد عند ساعات الصباح الأولى لتكون رسالتك أول من يعطر صندوق وهمي لرسالة لن تصل أبداً إلا لأرشيف النسيان؟

هل لملمت راحة صفحات كتابك دموع رجل ما أعياه السهر؟ هل أدركت يوماً مغزى بكاء الرجل، ألم الرجل، وحدة ووحشة الرجل؟ واهٍ إذاً فأنت فاتك الكثير يا سيدتي في معجم الرجال،وفي كافة قواميس الحياة، لتدركي بعدها أنك مجرد أنثى فاشلة.

-كفاكَ إطاحة بي بإعصار نظراتك الجامحة تلك، فهي تعييني كدأبها دوماً، حتى بالعشق يا ساهر في كوكبكم أعرافاً بذخية و تقنيات مبتكرة لا يقوى عليها عشقنا الدوني، فالصفح منك أيها البرجوازي المعذب، الصفح منك لكوني تعديت ذلك الخط الحساس الفاصل بين عالمينا، والذي أودى بي عالم آخر هو

الضياع، ليتك يوماً هبطت من التلال الشاهقة نحو تلك الحواري المتوارية خلف عتمة المجهول لتدرك حقيقة المقبرة الإنسانية هناك، تلك التي يعجز فيها العقل اللاواعي مجرد التفكير في حقيقة كونه عالماً حياً، لا أدري كيف سأبدأ، كيف سأسرد بداية الحكاية، وأرتع خيوط الرواية، وأدمل أوجاعها بعناية طبيب جراح، كي أتعدى عقوبة السلطان شهريار، وأكون كشهرزاد التي تملصت بدهاء من حبال وعيده.

جميع العيون حولنا تنتظر بفارغ الصبر لذعة جوابي، يعتقدون أن ما بيننا الآن هو مجرد مناظرة كلامية،والبارع من يصمد إلى النهاية ولكن..

– لماذا عدت الآن يا ساهر؟

وتنافس الحضور على مقاعد محاكمتك ليشهدوا مصرعك الأبدي فيهم، وتحمل بيديك صك إعدامك، في صفحات ذلك الكتاب أبحت عشقك، هيا لا تقف ساكناً مداعباً إياه بين أنامل يديك مثل طفل حمل دميته فاطمأن بها أنها ملكه للأبد، هيا انبشه، مزقه،انثره، ولكن لا تكن مثل لوحة صماء، أوَلست أنت من أطلعني أن للجمادات ملكات خاصة مثلنا نحن البشر، تشعر وتتألم وتفرح مثلنا، وبت أنظر من بعدها إلى الأشياء بمنظارك الخاص، أمر بجوارها فأشعر بهمساتها، بضحكاتها، أحاكيها بطريقتنا، أشكو إليها قسوتك ورقتك في آن،علمتني أن لا أتجاهل السكون فهو أعمق حساً ووداعة وحلماً.

– صفحة خمسون، اعذرني،فلم أعد أقوى على تجريد الماضي من سباته العميق فجأة دون أن أحجز له غرفة في العناية المركزة.

يستهوي الجميع حولنا الحدث،وكأنهم كانوا يوماً أبطالاً مطمورين في حكايتنا، أرادوا معرفة مصير ما فاتهم بنهم حين أجبروا على شهادة موتهم، وأعادت لهم آلة الزمن الروح، فانتفضوا ليشهدوا الآن مصرع نهاية الرواية، أصدرت الصفحات المتموجة خريراً عالياً، فالجميع تقمصوا دورك دور العاصفة الهوجاء، وبدأت شهرزاد الغارقة تجدف بصعوبة في خيالها الماضي البعيد...

(ليتني استطعت أن التقط أنفاسي وأنا أجر خلفي أثقال الانهزام كي أتعدى كلماتها اللاذعة المهرولة أمامي، ليتني لم أصارحك يا سهر روعة

ليلتي معه ذلك الشتاء، يا ليتني أطلت السهر وثملت حتى اللاوعي، كي لا أنهض لواقع فجيعة ما حصل ليلتها حين عودتي لأشهد نحيب المرارة، وكيف للموت شرارة لاسعة، في رهبة فخامته تشعر بمدى بشاعة الأضداد، بضآلة الإنسان وتفاهته، فلا يصبح للوجود مكانة، ولا للأشياء فيه أي نكهة خارج إطار الألم، وديع،أيها الطفل البريء، يا ذكرى ضحية كل طفل استأصلت أرواحهم أياد طغاة اللاإنسانية، واستبدّوا على باحة فقرهم،فأجازوا حرمة أجسادهم الخائرة بلا رحمة، دون مراعاة لقدسية الإنسان ورفعته.

هبطت الدرجات المتهالكة نحو قننا السكني، فشدهني لبرهة لذة هدوء المساء وروعته، فلقد اعتدت رغم أنفي ضجيج زوار غير مرغوبين يلوثون بلا اكتراث تعاقب الفصول، ويرهقون نظام الأزمنة، فالليل لرواده نهار ولكن من نوع آخر، وتناهى لمسمعي من الخارج صوتها الجاف، كيف باستطاعة الطبيعة التي أودع الله فيها جمال روحه وجل عظمته أن تنسلخ عن روحها الطيبة لتنجب أرواحاً شوهاء كهؤلاء؟

– كفاكِ نحيباً أيتها الخرقاء، هل تعتقدين بدموع التماسيح تلك أنك ستستجدين عطفي نحوك؟ بعدك، لا إجازات شاغرة هذه الأيام، فالموسم ما زال في أوجه

– أمي، ماذا دهاك؟ لما أنت صامتة حانقة؟ أشحت بنظري عن تلك العجوز العاهرة التي لا يكف لسانها الحاد عن الاستهجان، صوب أخي المتكور في إحدى زوايا جدران المنزل وقد جحظت عيناه المتورمتان من ثقل صدمة عنيفة، فلم تعد الدموع تسعفه، وهرعت بحاستي جرياً لأتفقد (وديع)، أخي الصغير، فوجدته يجثو هامداً بأطراف باردة على فراشه المهترئ ساكناً، أخذت أحركه، أنفضه، ولكن لا من مجيب، فعلمت لحظتها هول فاجعة أمي.

وتبادر لذهني شعور أليم، كنت ما زلت أنظر إلى جسده الصغير العاجز وقد سكن فيه قلبه إلى الأبد،كما سكن قلب ذلك المتعجرف الدخيل، الذي اجتاح حياتنا البائسة للحظة، هرعت أمي إليه ذلك اليوم المشؤوم، متوسلة إياه أن ينتشل صغيرها من طابور الموت، كان لقاؤنا به أشبه بأي لقاء عابر غير محموم، كأننا لا نعنيه أبداً، مجرد غرباء مشرّدين، أمر حينها الخادمة باشمئزاز مقرف أن ترمي بهذه الحثالة إلى الشارع، وأشد ما آلمني حينها ذلك المشهد الكريه،حين جثت أمي عند قدميه فركلها بعيداً عنه دون مراعاة لكرامتها المهدورة في سبيل واجبها لأمومة اضطهدت في خضم معارك الحقد الذي ما زال يحياه الكبار، لا أدري من أين تشترى قساوة القلوب، ليته دلني على متجره ذاك، أو أي طبيب بارع بقدرته زراعة تلك الأنسجة المضادة ضد

عدوى الرحمة، تمسكت بقدميه بشدة تقاومه وهي تزحف خلفه

– أرجوك يا أبي ارحمني، اصفح عني، لقد نلت من عقوقك ما يكفي، وها أنا ذا أدفع ضريبة ذلك هواني وانكساري، عاقبتني بما فيه الكفاية، فلا تدع أحفادك ينالهم غضبك،فهم لا ذنب لهم، مجرد ضحايا لجريمة ارتكبتها بتواطؤ مع زوجي، ما كنت لجأت إليك اليوم صدقني، ولكن صُدّت كافة الأبواب بوجهي ووجدت بابك كما اعتدته دوماً مشرعاً، انظر إليه يا أبي، انه بعمر الورود، لا تسلبه من صحة سوية كما سُلبت منه رغد طفولة سوية، أرجوك لا تكن أنت ولسع المرض وقساوة الحياة عليه.

لم يكترث لبكائها، لرضوخها أبداً، فأجاب باقتضاب

– لا يعنيني كل ذلك، هيا ارحلي، فأنت حين قفلت الباب خلفك منذ أعوام لأجل رجل بائس، قفلتِ أبواب قلبي وذهني معه، فلم تعودي

ابنتي أبداً، هيا دعي من بعتنا من أجله أن ينتشلك من الحضيض، هيا اخرجي خارجاً، لا أريد أن أراك ما دمت حياً، وصعد السلالم دون اكتراث، لكن سمعته يأمر الخادمة أن تركلنا خارجاً مثل أي قمامة تعترضه، وانتهى ذلك اليوم العصيب كأي يوم عادي اعتدناه، صدود، هوان، انكسار، مثلما سينتهي اليوم حين تُودَع جيفة أخي سريره إلى الأبد.

– تباً، فالعدالة تقتضي رحيل قساة القلوب، أخذت تنفخ في فمه علّه يكتسب الروح فجأة فينهض، وتضغط على صدره بقوة دون جدوى

– هيا انهض، لا تدع أياً كان ينتصر عليك يا صغيري، قاوم لا ترحل أرجوك.

وجلست أحتسي منذ ذلك اليوم قهوتي بشغف مفرط على أبعاد قناطر مخيلتي الرعشاء، كإقطاعي متمرس أسطو على خطوات أي حب عابر فيه ضال، على مكنونات جحر فاض بأحلام بلهاء، أنقّضُ بشراسة على أي إحساس بريء يدوس بعفوية كهفي المرصود، وأغلقت نوافذ قلبي بستائر رمادية، ودرعت ممرات ذاكرتي بجدران إسفلتية، سددت جميع ممراتي حيث تكمن أوجاعي، وأقسمت بعدك يا وديع أن اقتصّ منهم جميع ثمن روحك المهدورة، ولم أكن بذلك أعلم أن أول انتقاماتي بدأ منك، حين طمرتك عميقاً جداً في جوف النسيان، وبات همي الوحيد أن أنهض، أن أكافح عدوى ذلنا الذي تفشى داخل شرنقة فقرنا، فلم يعد للحب وجود، المعذرة منك يا ساهر، فلقد اتخذت قرارا حاسماً متنه أن الداء الوحيد الذي يقوض ركائز أي مجتمع متين،هو «داء العشق»، ومتى اكتسبت مناعة ضده نجوت إلى الأبد، لم يكن ذلك سهلاً أبداً، فالمراهنات قد تبخسك أحياناً، فأيهما كان خياراً أفضل لي، التضحية أم الأنانية؟

وكلاهما صفة متوارثة في نسلي قد أكتسبها من كلا الطرفين، أن أكون نموذجاً مثل والدي الذي هجرنا بلا عناوين ولا رسائل، أو مثل أمي التي جازفت بنفسها بسذاجة من أجل سلعة (تدعى الحب) كانت فيما مضى باهظة الثمن، وأصبحت الآن مجرد سلعة رخيصة تخلف وراءها ضحايا مثلنا، لا ذنب لهم، فسحقاً لتلك الآلة التفريغية الشبقة، التي تخلف من بطشها الحيواني الجامح بقايا مشبوهة من كائنات ولدت، تشكلت فجأة، وترعرعت مثل مسخ فصم تدريجياً عن الوجود البيئي، هي شراهة ملغومة بشهوة عصيانية، حين تتنكر عن مشروعية الحق التكليفي لكمال النسل الإنساني وغاية وجوده، أجبني أيهما كان خياري؟

وتبادلنا النظرات مرة أخرى بصمت جاف، كفى أرجوك، فلم أعد طفلة كما كنت في السابق تلهيني بحكايا النظرات، هيا أكمل، لم يعلن صياح الديك بعد بزوغ الفجر، فللرواية بقية، أم أنه لم يعد يعنيك شيء عني، فأنت مثلهم لا يعنيك سواك.

سأكمل عنك، فلربما أرهقك تزاحم الأحداث (واتخذت خياري، حين علمت أنني أجابه الأعاصير وحدي، وان لم أصمد أمام ريحه فمصيرنا جميعاً الهلاك، ووجدت نفسي تنساق بلا إرادة صوب سهر، لا أنكر أن الليالي الطوال لم تجد لها ملاذا إلى مخدع أجفاني، وأنا أفكر، وأصارع ذاتي بزجر وعتاب، ووجدتني كلما هرولت بعيداً تلقفتني أفكاري من جديد، جلست عند عتبات (الملهى) حائرة، ولكن كلما راودني مشهد أمي التي لم تعد تعي من الحياة سوى فقيدها الذي رحل بجسده،ولكن روحه ما زالت تداعب أحضانها، تناجيه أمامها كأنه حي، تحيك له ملابسه الرثة، وتحكي لتلك القطعة الإسفنجية المتمثلة بروحه قصص ما قبل المنام، وتجري إلى

الشارع نهاراً ترقبه وهو يلعب مع الأطفال أقرانه، وقد تزجرهم أن داسوا له على طرف، كانت غارقة في بحر عالمه الصغير حد الجنون، كلما تمثل لي هاجسها بضعفها أعي أنني فقدتها وأخي إلى الأبد.

ووجدت أناملها تربت على كتفي

– هل تبكين يا صغيرتي؟ ما لي أراك ترجفين، هل أنت خائفة؟

ورفعت نظري إليها وقد انهالت دموعي بلا توقف

– ماذا دهاك؟ أرى كلاماً غزيراً في عينيك، هيا اطلعيني عما في خاطرك.

– قد لا تروق لك أفكاري،ولكن مكاني ليس هنا، لم يكن حلمي أن أقف على باحة مسرح إباحي كهذا أبداً، أتصيد بشباكي أي عابر كي أفرغ شحناته الفائضة في منفضدة جسدي، كنت أتوق لأبعد من ذلك،لشيء أسمى بكثير، لحياة سوية تصون لي ما تبقى من شرف، أعلم ما تفكرين به، وأنني أشرد بعيداً فوق حدود قدرات عالمي المتاح، وأنني عمياء وصماء وجدباء، ولكن أليس لي حق مثل باقي البشر حتى في بحر الأحلام؟؟

– بلى، لأجل ذلك لن أخوض معك في جدال سقيم، فكل منا له قصره الخاص يودع به خلاصة مفاهيمه وأحلامه، يبدو أن مسرب كل منا معاكس للآخر، ومكانك كما قلت ليس هنا، لذلك وجدت لك عملاً يصون كما تدعين ما تبقى لك من حياة كريمة.

وبعد رحلة عذاب طويلة في صراع مع قطار الزمن المرير من عمل لآخر، ومن حياة ذل لأخرى،أدركتُ مع الوقت أن هناك فرصة ثمينة يخبئها لك الله كهدية، ثمرة صبرك وجهادك، ليجعلك تدرك مدى عظمته

وحكمته، وفتحت لي الأبواب على مصاريعها لحظة التقيته صدفة، ربما الصدف محظوظة في طرق بابي، ولكنها لأول مرة تصيب هدفي ولا تخيبه، كنت مختبئة في إحدى زوايا (النوفتيه) حيث أعمل، اكتب إليك يا ساهر كما اعتدت دوماً رسائل لم تصلك أبداً، فهي مخبأة تحت تلك الشجرة التي اعتادت دفن أسرارنا في لحاف جذورها، وباغتتني على غفلة بصوتها الشبيه بصوت جدتي، (المشرفة)، وبت في وضع حرج وهي تتآكلني بشتائمها القذرة وبيدها التي هوت مثل سوط لاذع على كتفي، لأهوي على الأرض وقد تناثرت الأوراق جميعها حولي، وشعرت كأنني جردت من ملابسي، مسرعة حاولت التقاطها، لكنه كان أسرع مني فالتقطها، وغاصت عيناه في جوفها ثم سألني

– هل أنت صاحبة هذه الكلمات؟

كنت قد خبأت وجهي بيدي خوفاً منها وبتلعثم أجبت

– نعم، أعطني إياها أرجوك، أنا آسفة يا سيدتي لن أكررها مرة أخرى، ولكن أرجوك لا تطرديني، كانت عيناها تودان لو تخرجان من محجريهما لتنقض علي كفريسة بلا رأفة، وهو ما يزال يتابع الكلمات عبر الصفحات

– هل لي بحديث معك؟

–أرجوك يا سيدي أعطني الأوراق لا تقطع رزقي أتوسل إليك

وجذبتني يديه إلى الخارج رغماً عني

– أريدك أن تعملي لدي

– سيدي أنا لا أملك شهادة

– ولكنك تملكين عاطفة جياشة، فذلك يكفي، سأمد لك يد العون مقابل إحساسك.

لحظتها لم أفهم شيئا، وما كنت أريد استيعاب أي شيء، سوى الهرب بعيداً عن هذه الوحوش البشرية هنا، وبعدها غابت بنا السنون، أواه كم هي ذكريات مثيرة، كم مر على عمري الآن وأنا أعمل في جريدته، لم أشعر معه يوماً بمدى طول الأيام، بل كان دوماً مثل بلسم يرطب الآلام، حتى حين فاجعة وفاة والدتي التي ماتت قهراً،غماً، ووحيدة، أذكر يومها وقفته المؤثرة معي، وأخي، وكأنه والدنا بحق، ولم يبق لنا من الدنيا أي حصن منيع يحمينا إلا هو، (السيد حكمت)، لن أنكر يوماً مقدار عطائه لنا، بفضله نلت شهادتي الجامعية، وأول كتاب طبعه لي على نفقته الخاصة، والذي بفضل حسن تسويقه له نال رواجاً عالمياً، ليتك يا ساهر تدرك نكهة ذلك الإحساس البديع، حين تتفقد خارطة وجود ما، وترى لك حدوداً فيها حجزت خصيصا باسمك، وقد كنت بالأمس خارج نطاق هوامشها، أتدرك لذة ذلك؟

ورفعت رأسي اتجاهك مباشرة، أردت النظر في عينيك إذ لربما تطفئان حرقة النوى، كنت أستجدي منهما العفو وأنا أجهل من بعدي كم رمت بسهامها قلوب إناث قد نالت شرف صدرك الفسيح؟ وسرحت بعيداً بآفاقي كعهدي دوماً،حيث اعتقدت بضيق أفقي أنك ستهرع لتدفن رأسك المثقل في صدري، ولكن وجدتك لا تأبه مثل أي شخص لم يستهويه الحوار فآثر المغادرة على ضياع وقته سدى، أو لربما أصبح لك عش منيع، زوجة ما تنتظرك، وتهرع إليك فتوشم خدك قبلة المساء كما كنا نحلم يوماً ما، وبرغم وساوسي بقيت أتأملك على أمل اللحظة الأخيرة كما يحصل عادة في الأفلام الكلاسيكية القديمة، فدائماً نحن الفتيات نمني أنفسنا

بالأوهام، وجميع العيون حولنا ينتظرون هول المشهد الأخير، فجأة يأتي رنين خافت صداه قادم من بعيد، أنهض من غفوتي وكأن روحي هوت من سفح عال جداً فتلقفها جسدي، أدرك أنني غصت في غيبوبة مع الماضي على اثر الخبر الذي تلقيته منذ ساعات عن استضافتي في البرنامج التلفزيوني (فنجان قهوة)، نهضت لأجيب على الهاتف وأنا أخمن بطريقي من تراه السابق، هل هي سهر لتزف إلي خبر نجاح عرضها الأول في ملتقى مصممي الأزياء،بعدما حققت حلمها وتخلت عن سوق النخاسة ذاك، أم تراه أخي ليشاركني فرحته بحصوله على شهادته العليا في الفيزياء، أم لربما هو ذلك الجندي المجهول يبارك لي نجاحي، ويجدد كدأبه مبايعته لي، يؤكد بإصرار أنه ما زال سراجي في عتمة المجهول، التقطت السماعة أجبت

– الو، تفضل.

لكن لا مجيب، سوى سكون ممل، أعدت الكرة مرة أخرى، هذه أول مرة أتلقى فيها معاكسات عابرة

– ألو، ألو (أتراه يكون هو؟)

وبدأت أشعر برعشة أجزائي الساكنة التي تسربت تدريجياً نحو شفاهي، ووجدت لساني قد خدر تماماً، وجلست على رصيف خيالي من جديد، أترقب وأتذكر، وكيف لي أن أنسى أي حرف أو عناق أو قبلة عابرة وصمت بها مخيلتي، كم وددت لو أعود طفلة على باب السادسة عشرة لألهو على أدراجه من جديد، لأبدل صياغة الأدوار، أتذكر حين قلت لك (ليت عينيك تبحران بعيداً عن مرسى مهجتي) أعترف لك أنني كنت كاذبة حين ذاك، فكيف لهما أن تبحرا بعيداً إن كانتا أصلاً هما بحر مهجتي.

لما لا تجيب، هيا أسمعني صوتك، أثرني، أشعل شمعة من كبريت قلبك لتنير به ظلمة ممرات حب تائه عبر طوفان الزمان، أسمعني إياها، لمرة واحدة فقط، كلمة واحدة تكفيني، قلها بأعلى صوتك، تحدّ بها الزمن الذي أشاح بكبرياء وجهه عنا، بأعلى صوتك قلها

- أحبك يا حوريتي الصغيرة

وبقي الحوار بين الطرفين مفتوح، لربما همس الصمت أعمق إحساساً أحياناً من الكلام، ولم تنسى أن تستثيره بين الفينة والأخرى كي لا يكاد ينسى وجودها هامسة ببراءة الطفولة

: ألو ألو...

مدخل

الضياع هو ذلك السم الذي بيده
أن يستنزف منك روحك، فكرك،
وجسدك، لكن ببطء مميت.

حذار...

«النساء لم يكن ولن يكن مجرد خادمات يوظفن في البيوت الزوجية يعملن لدى أسيادهن بالمجان»

هذا ما صرحت به أحد عناوين المحاضرات الأسبوعية التي تعقد في دار الندوة تحت شعار تثقيف المرأة لحقوقها المهدورة وعدم انسيابها تحت تيار الخنوع لزوجها.

ساد تلك الأمسية حينها صمت مشحون بالترقب، حيث بدت كجلسة كهربائية مست عقول السيدات بتيار جرفهن مباشرة نحو قفزة مفاجئة للتمرد على واقعهن الأليم.

سدىً باتت تقاوم سهاد تلك الحرب التي شنتها ذاتها عليها تطالبها بحقوقها، لدرجة بات النوم يشكل لها كابوساً عظيم، كانت ساردة آنذاك لا تكف عن التفكير وهي قابعة في غرفة المعيشة، ونظراتها لا تفارق صغيرها (وائل) وهو يلهو في جنة طفولته البريئة، والبسمة بين شفتيه تماما كالبلسم حول النتوءات الجريحة، وهناك عمر إنه في العاشرة من العمر، شعلة من الحيوية والحماس وهو آخذ في النمو تدريجيا وله احتياجاته التي

تكبر معه، هي من سيحقق له مطالبه، صحيح أن والده لا يقصر في حقوقهم لكنها تود المساهمة في إبراز ذاتها، وتشغل منصبا كبيرا فيتفاخر بذلك أولادها بها، وكبرت الفكرة ونضجت لدرجة لم تجد بقعة تتسع لعمق تلك الأمنيات الضخمة، وفجأة تمردت عليها هدأة أيامها وأحست بنشوة الانطلاق والتمرد على قضبان سجنها البارد العتيق، وأصبحت صفحات الجرائد ليست مجرد صفحات بالية لسد فجوة الروتين الحاد بل محطة لانطلاقها إلى دربها الجديدة.

أقلتها الحافلة تحت وطأة الجو اللهيب إلى حيث مكتب التوظيف لتقديم طلب عمل، شعرت كأنها تتحمص في موقد ما، والعرق يتصبب منها من جراء ازدحام الركاب في الحافلة، فلم يكن عزاؤها سوى النظر عبر النافذة نحو المدى البعيد حيث هاجت في مركب أحلامها، شردت، خطر على بالها أولا زوجها المسكين وكيفية احتماله وهج الحرارة كونه مهندساً مدنياً «هو رجل» هي لن تحتمل مثله، ستبتاع سيارة لها فذلك ضمن إمكاناته، وصديقاتها اللواتي يمتلكن أفخم السيارات لسن أفضل حالاً منها أبدآ، وتخيلت الموقف، سيارة صغيرة خمرية اللون، تهبط منها بجمال قدّها ورشاقة جسدها فهي ليست مجرد زوجة مثالية مطيعة، تصعد إلى حيث مكتبها المعد خصيصا لها، الجميع يمدح ذكاءها، جمالها، شبابها، تعمل بحريتها المطلقة، تخرج لساعات غير مقيدة إلى النوادي، المطاعم، دور السينما والأزياء، والتسوق مع صديقاتها المقربات لها لتمتع ذاتها فمن يأبه؟، هناك الخادمة «ماجي» التي اقتنتها من إحدى المؤسسات، وهي ستعتني بالأطفال والشؤون المنزلية كافة، وأخذت الصور تتشابك وتتضارب في مخيلتها من جراء الضجيج والحرارة ما بين اليقظة واللاصحو، صدى قادم من بعيد يصارع هيجان الأصوات حولها يناجي ضميرها الغائب

– الخادمات ما هن إلا إحدى مشاكل تطور العصر، وتراجع الحضارة، وهن وباء وشيك.

– الأسرة المتينة المترابطة أهم ركائز سلم النجاح، وفشلها ما هو إلا طاعون سيقود إلى فجوة الانحطاط.

وأخرى تطغى عليها بشدة

– لا تكنّ لقمة سائغة يسهل مضغها من قبل أزواجكن.

هاجس آخر راودها ليشل تفكيرها حين بادرها طفلها عمر باستقباله لها بعد نزهتها الطويلة خارجا قائلا بالإنجليزية التي باتت تطغى على العربية:

Hello Mamy
why are you coming early today?

أما وائل الصغير فهو جالس حول حديقته الصغيرة بين حيواناته، يكرم الأبقار كافة وينحني لها برهبة وخشوع، يتفوه بعبارات غامضة كأنها تراتيل صلوات وثنية، ليعود زوجها بعد منتصف الليل منهكا كل في طريقه، لا تجرؤ على مواجهته خوفا من الإجابة بثورته المعهودة

– هل تريدين سيدتي العصرية أن انتظرك على لهفة استأنس لحين عودتك مع الخادمة «ماجي» أتغزل بجمالها الخلاب؟

ولكن لا، لن تهزم بهذه الطريقة، وبأسلوبه الرجعي الجارح لها كحد السيف، وأصرت على مواصلة طريقها رغم التحدي الكبير بينهما، وكبرت مناصبها ومهامها كعضو أساسي وارتفع معدل دخلها، هذه التصورات التي راودتها جعلتها تبتسم في الحافلة مع ذاتها، ومع كل خطوة نجاح

يقابلها تدهور حال أسرتها من تراجع أخلاقي وعلمي، فعمر مثله الأعلى «ماجي» يقلدها في التدخين، والتأخر عن المنزل وعاداتها المتوارثة السيئة، والبرامج الأجنبية الإباحية، وأخذت «ماجي» تكبر سلطتها الهوينى على الأطفال بشكل لافت للانتباه حيث باتت تماما كالمخدر الذي ينساب في أوردتهم لتسممهم بمعتقداتها.

وبرغم ذلك بقيت صامدة في وجه الضغوطات ووجه زوجها وتحديها له أنها أفضل منه ولا فرق بينهما إلا من الناحية البيولوجية، دخلت مكتبها حين وجدت الهاتف لم يكف عن رنينه، أجابت عليه وقد شحب وجهها واصفر كالأموات لتسقط السماعة وتهرول بلا وعي نحو السيارة، تقودها بسرعة جنونية متجاهلة القواعد المرورية، والدموع تذرف من عينيها، تقودها كأنها سكرى، وعادت أطياف الماضي تتجلى أمامها، تذكرت هدأة لياليها مع أطفالها، تشدو لهم بالحب والحنان أغاني وقصص ما قبل المنام، الاستقرار، كم تحلم به، وتراءى لها وجه زوجها بهمومه وقد تهالكت عليه، يا ليتها تعود وتستقبله بأحضانها وتطبع على خده قبلة المساء، كم تحتاج لذراعي زوجها يطوقانها ويغيبان معا عبر عالم فسيح ينسى هو فيه متاعبه وكذلك هي، يناقشان معا مخططاتهم ومشاريعهم المستقبلية، تعاونه في عمله الشاق وتحمل جزءاً من العبء عنه، كل شيء تلاشى كالحلم البديع تاركا بصمات الخراب والدمار، وحيدة هي مع عباراتها اللعينة كصدى يئن في ذاكرتها وهي تصعد درجات المستشفى بخطوات هستيرية جاهلة سيدة الأعمال تلك،لتعود مجرد أم خالية من زخرفات العصر الحديث إلى حيث يجثو طفلها وائل بين صراع أنفاسه والقبر، بسبب إهمال الخادمة له أو الأحرى إهمالها هي كأم عليها واجبات ومسؤوليات «أرفض

أن أكون رهينتك مجرد آنية مزخرفة في منزلك، أريد استقلاليتي، حريتي كأنا، كذات تحيا».

وضعت يدها على أذنها في محاولة للتخلص من كل تلك الكلمات والشعارات التي تجري في مخيلتها، فهي كانت كالقنبلة الموقوتة عليها وحدها لا غير، صرخت بصوت مبحوح مطعون

– تبا، لا، لا تمت.

تقدم منها فجأة ليكسر تلك الهواجس السوداوية رجل ضخم طويل، يبدو أنه سائق الحافلة، نظرت حولها باستغراب وحدها قابعة في مقعدها، تنفست الصعداء، هدأها قائلا:

– مدام، ألن تهبطي؟ لقد وصلنا إلى آخر الموقف.

مدخل

لا تلهو مع الحياة أبداً، فمهما كسبت جولاتك الأولى ضدها ستراديك بالنهاية الخاسر الأعظم، رويدك، ستلهث خلفها بأنياب جائعة ولن تنال منها سوى الفتات.

دعني أبرر قدري

اجتاز ممراً طويلاً أعوج يفضي إلى حي شعبي مهمل مشبع بروائح نفاثة بالعفن الأسود، والحشرات الصغيرة تنساب بين الشقوق الفاصلة على بعد قدميه، باغتته صدفة تلك العيون الحمراء والسوداء التي تترصده من داخل الزقاق الضيّق، كأنها تقيس أبعاده لتحسن توقيتها وتنقض عليه بنهم ويسر، ليشعر بلا إرادة أن أطرافه لم تعد منه، وأنابيب محطة قلبه لم تعد قادرة على تسريب إنتاجها الدوري، لينفصل عن دورة الوجود بغيبوبة مؤقتة في ذهول تام، ليدرك بعدها حقيقة الموقف تماما، فيشد الخطو جريا دون توقف وما زالت كلمات زميله تئن بمسمعه

– سر ما استطعت إلى أن تكل قدماك (كان يقولها وهو يدرك تماما مغزاها، وهو الآن أيقن سر ابتسامة زميله الباهتة المصفرة)، ثم إذا صادفت شارعاً طويلاً من الحاويات، اختر ما كتب عليها رقم (10)، ثم انعطف يساراً، ستواجهك أربعة من البيوت، ادخل البيت الرابع فهناك مطلبك، وكأن تلك الإشارات قد أخذت موقعها على خارطة ذهنه كدليل له نحو هدفه، والذي أرابه من الموقف كله، هذا المكان المشبوه، وكأن الحياة باتت تستنزف مواردها رويداً رويداً إلى أن تؤول إلى غابة موحشة تحكمها عقيدة

واحدة ألا وهي عقيدة الشيطان، أراد الرجوع من حيث أتى، ولكن شيئا ما منعه، ربما ذلك الطفل المهيمن داخله الذي يمتص جزء منه جعله يغض النظر مبدئيا عن فكرة الإياب، التقط أنفاسه بعد جهد وتابع المسير، عما قريب ستفتح لك يا رامي نوافذ الفرج، شعر بالبهجة وهو يحاكي ذاته، فالفرج تماما كالجرس الذي لا ينقر إلا عند الضرورة القصوى، ومع سلسلة متشعبة من انفعالاته وجد نفسه أمام مكب النفايات حجرة (10)، أطل بفضوله كما عرف عنه بين أقرانه في الجامعة ليستيقظ من صفعة حادة حين وجد أنها حقا حجرة للمبيت لكن مبيت الجثث المتحللة التي أصبحت مأوى لكل مشتهٍ من الذباب والقوارض، تقيأ كل شيء في أمعائه، صحبه دوار عنيف، وصل إلى هدفه بعد أن استنزف كامل شهيته المدخرة، تهيأ للدخول بعد أن أحسن ضبط هندامه، انسل بصيص خافت من النور، هي قناديل تدلت من الحائط، خيّل إليه للوهلة الأولى أنه في حضرة قوم على وشك الانقراض بأجسادهم الهزيلة، فذاك يقضم أظافره وقد قارب على الانقضاض بنهم على ذاته، وآخر غارق في لجج حياة أخرى، يبتسم حينا ويبكي حينا، وتجاذب الأفواه الكثيرة قد تشابكت في فوضى العشوائية، اقترب منه رجل عجوز يحمل البخور، يعمل على ترطيب الجو خوفا من تراكم الأرواح الشريرة، وقد همس له أن يتربع مع طابور المنتظرين ليترقب مجيء دوره في مقابلة العرافة، التي ستطلعه على مستقبله العملي وحياته الدنيوية، أخذ يحدثه القابع إلى جواره عن قدرتها الفائقة في استبيان الخفايا المبهمة، وقدرتها العجيبة أيضاَ على مناجاة الأرواح المتسللة وعلى طردها، وبانفعال عفوي قال:

– انظر إلى هناك وأشار إلى باب كتب عليه بخط ركيك (غرفة الإنعاش)، هناك ستجد الأفيون الذي تبحث عنه، سيحررك فخامة الجن

الأحمر من شعوذة الأشباح السوداء التي تغشي بصرك عن درب الوجود، ستخرج وقد حصلت على حمام منعش.

نظر إليه بذهول، لم تستطع مخيلته ربط حديثه المبهم، لا بأس سيدرك كل شيء في حينه، لكن ذلك الرجل لم يتركه وشأنه، أضاف

-لقد أطلعني مولاي المعظم بأنني سأشفى من مرضي الكئيب في غضون شهر تقريبا، وأن عمري سيطول ما شاء إلى أن أملّ الحياة وأقول لها تبا كفى، هذا ما قالته له تلك النيران التي سطعت من موقد الرماد، والأحجار الغريبة والتي بقدرتها اجتياح مسامات جلدي عبر أبخرتها المقدسة لتكلم الجن القابع في أعماقي، وهو أدرى مني بذاتي عما يدور من تفاعلات حية في داخلي.

لم يستطع رامي أن يقاوم دهشته التي فضحته، شعر برهبة وقشعريرة عنيفة، أراد الانسحاب، أي شعوذة هذه قادرة على اختراق مسامات الذات البشرية، إلا أن يدا تمسكت به جيدا، هي يد العجوز التي أجبرته على المكوث خوفا من مطاردة الأرواح له، وبقي هامداً في مكانه، وذلك القابع بجواره هادئ للغاية يرقب الداخل والخارج على أمل أن يأتي دوره المرتقب، فجأة غاب رامي في رؤيا مغمورة بالبخار الكثيف المتصاعد وقد غطى المكان، رأى نفسه حول مقبرة مليئة بالجماجم، أيادٍ مقطوعة تجري خلفه تحاولُ جذبه إلى قاع عميق وهو يجري بلا توقف، يصرخ ويستغيث، إلى أن وجد شجرة من بعيد محملة بثمر غريب، تسلقها فزعاً إلى أعلى قمتها فلا مفر له سواها، قطف هناك ثمرة غريبة بهرته، وحين شرع بقضمها، بدت له من السماء أبوابا جمة قد فتحت على مصاريعها تمطر له مظلات، أمسك بيده الأخرى جذع المظلة، ارتفعت به إلى الأعلى، وهناك هبط، داس

أرضا بيضاء رخوة، جذبه فضوله لذلك التابوت، فتح بابه، شهق بانبهار مخيف، أخذ يجري ويجري ويد تمتد من خلفه تجذبه إليه، فجأة عاد إلى الواقع على صوت صراخ مخيف، وقد كاد يختنق بين الجموع التي تراكمت حوله وهم يصرخون

-لقد مات المسكين، لا حول ولا قوة إلا بالله، أيقن أن الرجل الذي كان إلى جواره فارق الحياة، وما زالت كلماته تئن في مسمعه

(إلى أن أيأس أنا الحياة، وأقول لها تبا كفى).

سمع رامي أحد الأصوات من بين الجموع يقول

-عودوا إلى أماكنكم، سيأتي الحارس حالا ويقذف به إلى إحدى الحاويات المكومة خارجا.

شعر حينها بالغثيان حين انتابه ذلك المشهد الباكي، استطاع أن يخرج من بين الحشد الوفير، أسرع إلى الخارج وهو يشد على قدميه ليزيد من سرعتهما كالمجنون، وهو يخلع السترة الخارجية، وحذاءه كأنهما يشكلان عبئا ثقيلا يعملان على اختلال توازنه العام.

مدخل

تؤلمني الفوضى داخلي،فهي
كمرايا تعكس صورة خذلاني
جلية أينما هربت.

ولعتمة القنديل ظل أحيانا

بين الحقيقة والخيال واد بعيد، نعتته طفولتي الحالمة (بوادي المعجزات)

تصورته مخيلتي الضيقة الأبعاد أنه منحدر ضيق طويل، متعرجة طرقاته، وكنت طفلة في العاشرة أجري وأجري عبره وتطول المسافات بحركات دائرية، لا حواجز تفصلها ولا مغارات، وليس هناك منعطف تحول ولا فرجة كما أطلعتني جدتي يوما ما قائلة:

– الحياة يا طفلتي هي كوة أمل،مخبأة خلف أبواب السماء، تطل من خلف واد بعيد، كوة دائرية تشع منها أنوار لولبية، لا ترينه طفلتي بالعين المجردة، لكن باستطاعتك أن تلمسي سحره الخفي

وبريبة الطفولة الساذجة أسألها

– هل هو جني الأحلام يا جدتي؟؟

وتربت هي على رأسي الذي يجثو بين ركبتيها باسمة

– ما زلت صغيرة على فهم الحياة يا حلوتي المدللة.

وأستمر في الجري دون انقطاع، وأسمع صدى أنفاسي اللاهثة في الوادي ورائي، وبرغم ذلك أتابع دربي الطويلة وما زلت أجري وأجري...

أصحو مرة أخرى على ضحكات صاخبة تعج في القاعة هنا حيث أنا الآن جاثمة كدمية مهترئة، أجول ببصري مشدوهة هذه المسرحية الهزلية، حبيسة الوقت، يطوقني لجام التوتر، وأهاب صمت الوادي داخلي فجأة، وحيدة ترهقني أنفاس البشر وثرثرة أشخاص لا يملون السهر، أنظر حولي إلى الصخب والأضواء المتناثرة حمراء، صفراء، خضراء كلها تداخلت لتشكل ألواناً قزحية، الموسيقى همجية النغمات تخضعك لجلسات عصبية، مرغم أنت فلا تكابر، شباب كثيرون تحت سطوة العمل المتهالك يتراكضون دون وجهة محددة، يشغلون طاولات دائرية مزخرفة، فتيات عائمات كأسماك خرجت لتوها من الماء ينثرن تمردهن تحت وطأة أنغام شرسة، وأجساد مرهقة بعد نهار طويل تتناثر بعشوائية على المقاعد ككؤوس الويسكي الفارغة، منافض جامحة تشتهي شفاهاً جائعة، وها هي ذا (شغف) البطلة الأسطورية برموشها الطويلة الكثيفة تفرش سجادها هذه الليلة لمدعو آخر وليلة أخرى، غمزة واحدة كفيلة لأن تشرع مصيدتها السحرية لذي عابر تائه؛ كفيلة أن تجره منوما إلى مرماها دون مخدر؛ يوقع عقودا تحت مسمى «صفقة».

والأغرب من ذلك أن صفقاتها دائما رابحة، جعلها المدرب لنا نموذجا يحتذى به تتصدر(فاترينة الصفقات) دون هزيمة أو حتى منافس، ونحن الأعضاء الجدد في هذه المؤسسة نتابعها بحسد بالغ وهي تنتقل من طاولة إلى أخرى برشاقة مومس.

وأعيد النظر إلى نفسي برتابة كل يوم مساء، كان عملي هنا صدفة، صدفة بحتة، ركلتني أبواب الجامعة إلى معترك الحياة جاهلة بلهاء، صورت

لنا العالم الخارجي مختبر أحلامنا، منظاراً نرى خلفه أجمل الأمنيات، مجدافاً يبحر بنا إلى ما وراء الهضاب، التلال، الوديان، ويتسلق حتى الغيوم إن شئت، ووقع فجأة بصري على إعلان دائري في الصحيفة اليومية:

«لكل طموح يهوي ركوب الأمواج، ويصارع بلا فتور مثبطات الأحلام، لكل من يهوى مجابهة المغامرات، نحن ندعوك لتنضم إلى موكبنا لتسير فوق مروج الذهب، لأن تكون سيداً، ببساطة كفاك زحفا وراء الفتات، نحن بانتظارك، لا تدع الفرصة تفوتك لأن كنزاً دفيناً ينتظرك، لست بحاجة لمعول أو فأس والتجربة خير دليل على صدقنا، نحن بانتظارك».

لا أنكر أن هذا الإعلان جذبني، تخيلت فجأة أن مساري توقف في ذلك الوادي، وأنني لمست بعد مشوار طويل من أنفاس متقطعة، ودموع منهمرة، غباشاً بعيداً خيّل إلي لوهلة أنه ينبعث منه نور خافت، وأدركت أن تلك الكوة ربما تنبعث من خلف هذا الإعلان، وبت أقدّس كل شيء دائري في محيطي، فهو معلم عجيب يودي بي في غيبوبة وهم كبير، ووجدتني فجأة أقفز، أطير، أغني، بلا انقطاع.

– سهاد

صوت عميق قطع تيار اتصالاتي مع ذاتي، من خلف زحمة الضجيج في ركن بعيد منزوي، كنت أجلس وحيدة أصارع في ذلك الوادي، وذهولي يسحقني، لم أر السماء تفتح لي أبوابها المقفلة كما اعتقدت حين تقدمت لإشغال هذه الوظيفة، تمد ذراعيها المعقودة لتنتشلني من بؤرة هذا الانجراف السحيق إلى ما لانهاية.

تأملني هو بعمق، وقفت مواجهة له نظرت لشرود عينيه، حتى خيل لي أنني فتاة بلا ملامح، قناع سقط فجأة عن وجهي وأخذت أتحسسه بريبة، راع المدرب توتري، فوبخني قائلا

- تشجعي أريد تألقك اليوم، جعلتك لزبون خاص جدا حتى لا تلومي انحيازي لأعضائي القدامى، أريني قدراتك الفائقة، وأخذ نفسا عميقا من سيجاره الطويل، ثم غمز لي بعينيه اللعوبتين، تفهمين قصدي، أريد لغة خاصة مميزة هذه الليلة لغة تستثير من حولك، وتوقد فيهم الرغبة في ابتياع منتجعاتنا، لديك الإحساس في عمق عينيك، هي لغة بحد ذاتها، صوتك مثل سمفونية يذيب جبال من الثلج، لديك مصيدة متينه فقط لو أحسنتي استعمالها، أريد هذه الصفقة أن تتم بأي طريقة كانت، لن أخسر هذا الزبون المتخم أبدا (وبنبرة عدوانية وملامح شديدة التهديد أكثر منها حماسية أرعبتني).

أطفأ السيجارة في المنفضة كما أطفأ يوماً حماستي فيها، يوم جريت لهفة من المنزل لإجراء مقابلة، وأذهلني هذا الكم اللامعقول من الحضور، جميعهم تخرجوا من فترة وجيزة، لبرهة شعرت أن كفاءتي ذابت وأصبحت بحجم فراشة صغيرة تدور في حلقة مفرغة، فأصبت برعشة الذعر حين رُفض الكثيرون، وجاء دوري لمقابلة مدير شؤون الموظفين بعد انتظار استنزف هدوئي كاملاً، مزاجه سيئ، أجواء مشبعة بدخان كثيف، وبملامح قاسية أشار إلي بالجلوس أمامه مباشرة، وبهرتني الطاولة المستديرة، وأصبت بحب أعمى لزيف أوهمت نفسي أن مقاومتي له معدومة، فالدوائر تشدني لخيال بعيد لذلك الوادي، تجردني دائماً الإحساس بكل ما حولي لتزجّ بي داخل هذا الإحساس الدائري فقط.

وشدني وجه المدير الفاحص لي، لم ينس أبداً أي منعطف في جسدي وكأنه يقرأ عبري كتاباً مفتوحاً، يشده إلى الأعماق، يفك رموزه الغامضة، يحاكيه بلغة أجهلها، ثم بعد صمت دام خمس دقائق من الفحص التأملي قال بابتسامة شاحبة:

أعتقد أنك جيدة، ولكن ينقصك بضع تمارين في لغتنا التسويقية (كان يحاكي نفسه ويقنعها أكثر منه اكتراثاً لي)، ثم التفت إلي

- لا بأس نجحت مبدئياً في الامتحان.

وبقيت مشدوهة خلف بحيرة من التساؤلات، واعتقدت أنني فقدت حاسة النطق تماماً لأنني أذكر حينها أنني لم أقو أبداً على استحضار أي سؤال، لكن فجأة توقفت عن الجريان وتسمرت في منتصف الوادي حائرة، وبدا لي وجه المدرب الدائري هو الباب السري الذي فُتح لي على مصراعيه، وعيناه هما ذلك النور الذي أطلعتني عليه جدتي ذات مساء منقضي، ووددت بكل صدق لو أقبل هذا الوجه بلا انقطاع، فهو لم يعد أمامي سوى جني الأحلام، أيعقل كل الشهادات والإبداعات التي امتلكتها خلال مشوار حياتي، من سهر الليالي وآلام الامتحانات تلاشت تحت نظرة تأملية دامت بضع دقائق؟ هل يا ترى علم من نظرة أنني خبيرة تسويق، ولدي قدرة فائقة على التفاعل الاندماجي واستنطاق حتى الجمادات؟

ودام تدريبنا على الخطة التسويقية للشركة ما يقارب الأسبوعين، تلك الخطة التي تمتاز بأنها تفوق أي خطة تسويقية تقليدية أخرى، تقوم أساسها على ثلاث خطوات جوهرية في لغة الاتصال،ألا وهي كما تم تلقيننا:

1- CONTROL 2- COMUNICATION 3- CONVEINANCE

ثم أتبع المدرب ذلك قائلاً

-ستكون أمثلتنا واقعية لنسهل عليكم الفهم، ستكون (شغف) النموذج الحي لهذا البرنامج، ويشير إليها، تبتسم وهي تجلس على مقعدها بعنجهية كما تفعل هي الآن كلما نظر إليها أي شخص لفضول يتآكله في ماهية شخصية هذه الفتاة الأسطورية.

سألتها ذات مساء

-كيف أصبح لديك قدرة تسويقية فعالة؟

أجابت بغنج ظاهر

-يكفي أن تعلمي شيئاً واحداً، أن اللغة التي أتمرسها لا تجيدينها أنت، لأن قابليتك للاستيعاب معدومة في لغة أنت ترفضينها.

وأشاحت بوجهها عني لاستقبال مدعو (أي زبون) آخر... ومضى بعدها مساء آخر.

الساعة الآن قاربت الثامنة مساء إلا خمس دقائق، إذًا لقد حان موعد الجولة الثانية، يقدم لي المدرب استمارة الشخص الذي سوف أقابله هذه الليلة.

أجتاز بارتباك عتبة الملهى، المعذرة لا أدري ماذا اعتراني بالضبط، يبدو أن الألفاظ تزاحمت في جوفي ولم أعد أقوى على ربط أبعاد ما وراء المعاني، لذا أقصد قاعة العرض أو الاستقبال فكلها سواء في اللغة التسويقية، أحمل البرنامج الذي سوف أروجه، أضبط هندامي فلغة الجسد أعمق اللغات، أتكلف بابتسامة مزيفة فهي لغة أيضاً، أظهر ثقة بنفسي عمياء فكلها خطوات أساسية.

– سيد ساهر؟

يلتفت هو إلي من بين الزحام الخارجي، أتقدم نحوه

– أقدم لك نفسي، (سهاد) مستشارة.....، وهنا شيء يثور في داخلي باستنكار، أحاول جاهدة أن أخبئ آثاره الطاغية على ملامحي بالهرولة خلف المجاملات، وما زلت أجري وأجري والوادي يزداد أمامي مسافات شاسعة، وأنفاسي تتقطع فأقف مرة أخرى، أبتلع رمقي، أشعر برغبة في الغثيان، فجوفي بركان يشتعل، يلهب جسدي، لأصل لمرحلة الغليان، وبعد جهد من الصمت أخال أنه عار في سوقنا الترويجي، لأن الأولويةً تكمن دائماً في الألسنة الثرثارة أقول:

– سأستضيفك سيدي بضعة ساعات تقريباً، فأرجو أن لا يكون لك أي ارتباطات أخرى.

فيبتسم مصافحاً نافياً أي مواعيد تقيده.

(كذبة عميقة؛ لحظة صفقت الباب وأنا أشدو داخلي انتصاري ذلك اليوم، أوقظ جفون جدتي التي طواها التراب،أحدثها أنني نجحت وكسبت الوظيفة، وأن النور الذي يختبئ خلف أبواب السماء قد سطعت أشعته، وأنار دربي، وبدأت مواهبي تتفجر.

المعذرة آنستي، هل سيطول صمتك؟

أرى الوجوه حولي محنّطة، جاحظة العينين تفترسني، أدرك أنه حان دوري، أبدأ مباشرة بالشرح التفصيلي للبرنامج،..... وكما أشرت إليك سابقا، إن منتجعاتنا هذه موزعة على 96 دولة.....

لكنه فجأة يوقفني بعصبية جامحة

– اسمحي لي، أنت باردة العواطف، وأسلوبك لا يروقني، كفي عن الشرح الممل هذا.

تقاطعنا النادلة سائلة عن مشروبه

– أي شيء ينعشني من فضلك، يبدو أنني على وشك النوم.

ويأخذ نفسا عميقا من سيجاره ويتابع

– ألم يعلمكم مستر فريد اللغة العصرية للاتصال مع الزبون؟ (تتقدم يده لتلامس يدي)

– أريدك أكثر شاعرية وتحررا، شفافة مثل الزجاج المصقول.

أحاول جاهدة تمالك ثورتي وسحب يدي بعيدا، وأنا رهينة أحلام مقيدة تشدني كمسمار على مقعدي.

وأعود للوراء لصدى صوت مستر فريد (كميكرفون) مداه بعيد:

– أعدكم أن أكثر شخص يحقق هذا الأسبوع صفقات، ستزداد عمولته لتصل (200$) لليلة الواحدة..

وكان يرهقني فشلي طوال الشهرين الماضيين، وحدسي يطلعني كشيطان أعمى أنني سأنجح هذا المساء بأرباح خيالية، لذا أتريث وأتكلف ابتسامة باردة لإرضائه، يروق له الجو

– هكذا نستطيع التفاهم (أي ببساطة أكلت الطعم)، أنت أجمل حين تبتسمين، شفتاك القرمزيتان تثيرني، لذا لن أخذلك، وسأقبل العرض شريطة أن نحتفل نخب عقد الصفقة سويا في النادي الليلي خاصتي، (ويمد يده مصافحا).

– هل أقول لكلانا مبروك؟ (وأطيل النظر إليه، الجميع حولي يرمقني بفضول، والوادي ينحدر للأسفل أكثر فأكثر، أحاول الجري للخلف، ولكن أيادي قوية تشدني للأسفل، أفواها كثيرة تبتسم بسخرية تشعرني بمدى عجزي، أستنجد، والعيون حولي ساكنة تتآكلني بفضول، تنتظر مبادرتي الغامضة بفارغ الصبر، وأنا أشعر بأني أنجرف وأنجرف نحو القاع)

يدان من بعيد تلوحان لي هزيلتان، تمتدان من الأعلى من خلف باب في السماء انفرج، بدر دائري صاف يبتسم لي، يحيطني بظلاله فانتعش، أرشف منه كياني المهمّش، يشدني للأعلى، ليس حلماً صدقوني، إنما هو وجه جدتي، وأيقنت بعد غفوتي أن ما يفصل بين الحقيقة والخيال منعطف صغير، عجزت كل العجز عن تسميته حين كنت صغيرة، لكن أدركت الآن أن المعجزات تكمن من صميم إرادتنا، سمعت صوت جدتي تناديني:

– لقد نضجت صغيرتي، وربما أدركت أن الحياة ميدان، شاسعة ممراته وعرة، إن أغلق في وجهك باب تصدى له آخر، مددت يدي إليها، التقطتها، سرت خلفها هادئة بحثا عن فرجة أخرى، قريرة العين، بعد أن صفقت خلفي هذا الباب الشنيع وإلى الأبد.

مدخل

فرق كبير بين شخص يقتلع الحياة من جذور دفينة من أجل أن يمنحك إياها جميلة، نقية، وشخص يقتل أي معنى في عينيك للحياة، لتعيش بعدها على أنقاض ما خلفه من دمار، شتان بينهما.

ليت للعمر بقية

من خلف تلك المدرجات التي تصطفها أجساد البشر بعشوائية تشبه تماما ترنحات الأمواج الدائخة، بهرته تلك الأفواج التي تترقب شارة بدء المهرجان، الجميع من حوله يهللون ويصوتون، وحده كان قابعاً مع أفكاره على أحد المقاعد، كي يواري بعد النتيجة إن كانت سلباً بقايا الانهزام داخله.

أف، الترقب حالة تخلق في داخلك أمواجاً من الفوضى، تعلو وتهبط بأحاسيسك وقد تركلك في النهاية على شواطئها وكأنك لا شيء.

تعالى التصفيق بشدة حين وضع رجل بضخامة جسده تلك الشعلة، لتعلن ثورة المنافسة الحقيقية وسخونة لحظات البدء المشبعة بالترقب والانبهار، لا أحد يشعر بما يعانيه وبمقدار ما تعنيه له الجائزة الأولى، لقد كان القلم بالنسبة له تلك المكنسة الخرساء التي تلملم جروحا مبعثرة وكبرياء رجل أخضعتها الحاجة، أخذ يتململ في فراشه ذعرا، ربتت على يده أخته تهدئ من روعه، ابتسم ابتسامة صفراء واكتفى دون أي تعليق، أخذ يترقب الفائز العاشر وهو ينهي إلقاء مقاله، كان يغالب الحسد في داخله اتجاه جميع أولئك، تبعه التاسع، فالثامن فالسابع وهكذا...، شعر

بنبضات قلبه تلهث خلفه وهو يرقب الواحد تلو الآخر دون جدوى، أخذت أحلامه تتضارب مع الحقيقة والوهم، ردد بلا وعي وبصوت مرتفع «لمن تركتم الجراء تهذي»، وما زالت عيونه الثاقبة تحدق في مسار واحد وهي تشهد انتهاء الفائز قبل الأخير بائسة، نهض عن مقعده، هناك مرض خبيث ما زال ينمو الهوينى في جسده، فقط الجائزة الأولى قد تساعده على الشفاء، شعر بيديها الدافئتين تمسك يده مرة أخرى وتضغط عليها هذه المرة بقوة، هدفه أن يحقق حلمها هي بالذات، دخولها الجامعة، سهره المضني من أجلها، لن يضيعه سدىً أبدا، نظر إلى وجهها العاجي، إنه يعشق البراءة والقناعة فيها، عكس أخويها تماما، فبرغم صغر سنها لكنها الوحيدة التي كانت قادرة على لثم جراحه، ازدرد ريقه بصعوبة حين بدأت الموسيقى تعلو، أخذ الحكم يعلن مقدار الجائزة الكبرى وامتيازاتها، بهر الناس، أصابتهم لهفة الانتظار، سكتة الترقب، وخدروا بصمت مريب، وطُلب من الفائز حين يعلن اسمه أن يمشي الهوينى على تراتيل الموسيقى.

تن. تن. تن تن. تن. تن....

وبقيت تلك النغمات سارية دون توقف، سيطر عليه الخوف شعر بذلك الألم يعتصر قلبه، لقد عاوده الألم مرة أخرى، ضجت الأنغام صاخبة أكثر فأكثر، لوح الناس وصفروا، إنها اللحظات الحاسمة، صرخ بعمق بعدما فقد اتزانه، وضع يده على أذنيه تلافيا لذلك النعيق الحاد، أخذ يتململ في فراشه ثم سقط، فتح عينيه مبهورا، أخذ يتحسس ألم السقطة عن السرير، أدرك أنه مجرد صوت المنبه اللعين، هو ذلك الغراب الذي أخمد شوق تلك اللحظات الحاسمة، همس

– تبا إنها الخامسة فقط.

أخذ يتثاءب، ارتدى زيه البرتقالي الفاقع ببطء، ترائى له حبل المشنقة ممتد على مد بصره، هكذا يبدأ مشوار كل صباح، تناهت إلى مسامعه في الخارج أصداء مستنكرة

– لقد طفح الكيل وأصبح أخي عارا يلاحقني كظلي، بصمة محرجة، يئست أن أكون أخا الزبال، انك لا تدري تلك النيران المتقدة داخلي، حتى إنني أخجل أمام رفيقتي في الجامعة من نسبي كاملا.

ضحك باستهزاء، أضاف بائسا

– أتشكو لي، كلانا نعوم في مركب واحد دون فائدة، يئست سمفونيتك المعتادة، لم لا تواجهه؟ بالنسبة لي كلها بضع سنوات وانفصل عنكم نهائيا، سأصبر حتى لا أكون بعدها مجرد أخ لزبال حقير.

آلمه ما لامس مسمعيه من نعوت جارحة، أراد بعض التقدير منهم، الحنان، جزاء لتضحيته بعد وفاة والديهم، كان يتمنى أن يخرج إليهما بكبرياء عالية كي يطلعهم عن مهرجان هذا المساء، أراد كلمة حنون تطفيء النيران المشتعلة داخله، خرج من غرفته دون أن ينبس بكلمة واحدة، صفق الباب الخارجي خلفه بقوة، أخذ الألم داخله يتجرع من كلماتهم تلك كؤوسا، نظر إلى تلك المكنسة الجاثمة إلى جواره على الرصيف، كلمها ساخرا

– يعيرونني بك يا مكنستي الهزيلة، الحق معهم، عاشرتك زمنا، كنت رفيقا دائما، منحتك الإخلاص والوفاء، الانضباط، ومنحتني عارا لا ينتهي، مجرد زبال وضيع، استطعت أن تلتقطي قمامات البشر أجمع، وعجزت عن التقاط ما هو أقرب إليك، فأين حقوقي التي سلبتها وأنا كالأبله الذي يحرث دون جزاء ولا شكور.

وانصهرت دموعه تلامس شعيرات مكنسته المنخرطة مع خيوط الماء القادمة من مسرب مجهول:

- أتبكي يا (حفيف)؟

تناهى إلى مسمعه هاجس ما، رفع رأسه ذاهلا للأعلى، ومن خلف غباش أبيض من الضباب الذي يحجب الرؤيا الحقيقية عن عينيه اتحد ظلان، قرص الشمس الذي ما زال يلملم وهجه، وشيء غريب بدا أمامه يتصاعد نحو السماء بكثافة، أول مرة يشهد أرواحا صاعدة، وبهره أن تكون ناطقة حية:

- الأموات لا يتكلمون «همس بصوت منخفض»

- غريب أمرك يا هذا، أتستنكر ذلك وأنت حي ميت؟

نظر إلى نفسه بريبة، وأخذ يتحسس كل جزء في جسده، لكنه في الواقع حي، أخذ يتنفس بعمق ويلوح بيده، إذن لم يمت بعد:

- كاذب أنت، أنا حي، فقط الأرواح مثلك التي تتصاعد إلى مستقرها ميتة.

- لكنها أنت لا تحاول الهروب، عبثا تفعل ذلك، انظر داخلك جيدا سترى نزفا حادا يمزقك، يتعبك المحيط الخارجي، فأنت يا صديقي تصارع نقيضين أحدهما يفوقك قوة، أدركتَ ذلك وآثرت الانسحاب منهزما،وها أنت تجثم ككهل يندب حظه.

شعر فجأة بتلك الوخزة في قلبه، إنها تعود مرة أخرى، لقد باتت تستوطن مساحة كبيرة داخله، تذكر كلمات أخته المؤنبة

- يجب أن لا تهمل نفسك، راجع الطبيب.

كيف؟ والأولويات أحق، الجائزة إنها خلاصه الوحيد، نظر مرة أخرى صوب تلك الأبخرة المتصاعدة، حاول أن يلملم كلماته التائهة، لكنه آثر الصمت، عاد الهمس إليه أقل صدى:

- تابع دربك يا حفيف، هناك من هم بحاجة إليك وبشدة، دعنا نكنس سويا ما هو مختزن في أعماقك كدأبنا، لا تضعف الآن، الدرب طويلة، والنهاية وشيكة.

قطع الحوار بينهما صوت كهل يعرفه جيدا، إنه صوت أبي شكري البقال الذي لا يسأم أبدا من السخرية به هازئا كعهده:

- كيف صباحك أيها المثقف؟ «ويشاركه زميله تتمة السخرية»

- لكني لا أراه يتثقف اليوم، أتراه ملّ تلك التمثيلية اللعينة؟

التفت إلى الخلف كي يخاطب ذلك الصدى الذي ظهر فجأة كما اختفى الآن فجأة، وابتُلِعت الكلمات غصبا،لم ير شيئا سوى اكتمال وهج الشمس، بحيث لم يستطع إطالة النظر أكثر، أخفض رأسه إلى الأرض فلاحظ جفاف خط الماء الذي كان يسيل من مسرب مجهول.

أدرك أن الوساوس التي تقطن حيزا في مخيلته تدور في حلقة مفرغة، نقطة البدء تشبه تماما نقطة النهاية، مسافات شاسعة قطعت، وها هو الشفق يأتي أخيرا، يعلن مغيب الشمس ولقاء سريا اكتفى أن يحتفظ به لذاته، كم يعشقه، إنها لحظات هاربة ينتشلها من مشوار عمره الكئيب، يولد فيه إحساسا غريبا، أنه رجل بكامل عنفوان شبابه الذي هرم قبل الأوان، هناك يجرد نفسه عندما تصب تلك الحمرة الفاتنة الروح فيه، شفتيها خمرة أبدية،

توقظ رجولته المدفونة، إنها ظل لامرأة يعشقها، لطالما حرم خدود امرأة وشفاها قد لا تأتي أبدا، وتابع المسير بخطوات متعثرة تشبه تماما تلك الخطوات التي ما زالت تذرع المنزل ذهابا وإيابا،تقيس تلك المسافات المتقطعة مقدار أرق كليهما والتوتر الكامن فيهما، ضاق بها الانتظار، أصابها الخوف بغتة، نظرت صوب أخويها اللذين ما زالا أمام التلفاز منذ الظهيرة دون اكتراث، لقد ملت برودة أعصابهما التي لا تحتمل، صرخت بهما، أجابها أحدهما دون اهتمام بأن لقطة الفيلم مغرية ولن يضيعها سدى، هز الآخر رأسه مؤيدا واكتفيا بذلك.

بدأت الأفكار المتشائمة تأخذ بقعة كبيرة في مخيلتها، لقد بدأ المهرجان منذ ما يقارب نصف الساعة، إنها لحظات مهمة بالنسبة لأخيها، لقد بدأ الليل يكتسي سواده الهوينى، زاد قلقها:

– في الأمر علة ما «قالت موقظة غفلتها»

نظرت نظرة حاقدة نحو ذينك الأصمين اللذين ما زالا أمام التلفاز، خرجت صافقة الباب خلفها بقوة علها توقظ أحساسيهما.

علت الأصوات بالتهليل والصراخ، يكاد الصوت يصل مسمعه، ولم تفارق يده موقع الألم حيث قلبه، أخذ يستمع من خلال المذياع أسماء الفائزين، الفائز الخامس ها هو يتقدم، وأفواجاً جمة حوله تسترق النظر إليه بفضولية، سمع صراخ السيارات المستنكرة، وعصبية رجال لا يأبهون لمرضه، يلوحون بأيديهم غضبا:

– فليلتقطه أحدكم للرصيف، وآخر يصرخ

– تبا، ما به هذا اللعين

وتلاشى كل ذلك من صراع الأصوات حوله حين أعلن المذيع اسم الفائز الأول، وجحظت عيناه فجأة، حاول التركيز، هو كل ما يجيده في هذه اللحظات الأخيرة، ردد المذيع

– يبدو أن الفائز الأول قد تغيب لظروف ما.

وبدت انفراجة واهنة على شفتيه، لقد حقق في النهاية حلمه، قد يرحل الآن لكنه ترك خلفه كتابه الذي سيصدر عما قريب باسمه، رفع رأسه نحو السماء يلتقط بنظره حبات الأمطار التي هطلت بغزارة، دقت ساعة الساحة الرئيسية كدأبها دقاتها الثلاث، لكنه أدرك هذه المرة أنه لم يكن يحلم، أغلق عينيه للأبد، لكن هيّئ إليه قبل ذلك أن سيارة الإسعاف في طريقها إليه، ستغلق هي الأخرى بعد هنيهات بابها مسرعة إلى حيث تودع هذه القمامة المثقلة مكبها الأبدي.

مدخل

في أعماق كلٍ منا، إنسان آخر يشاطره الحياة ولكن بروح مغايرة.

ترهلات ذاكرة

صفقتْه خلفها بقوة، فتسللت من خلف الردهات أطيافا أبت إلا أن تلاحقني، عدت أدراجي حيث اعتدت دوماً أن أختبئ، فوجدت تلك القنطرة مرهقة، هائمة مثلي في الفراغ، وحدها النسمات تداعبك، وكائنات أخرى تشاركني ذاكرتي وتصفعني كلمات راسخة تمشي بمحاذاتي في ممري الكئيب ذاك.

خلت في تلك اللحظة التي قررت التحرر فيها من فلسفاتي البالية ظناً مني بأنها مرحلة بسيطة واجتيازها عدة خطوات، ولم أكن لأدرك حينها أنني أسير داخل حلقة مغلقة في دهاليز الضياع.

دائماً الكلمات تهرع خلفي، لماذا اختارتني الذاكرة قرينة لها توسوس كلص هارب ولم يخترني القلب ليريحني من مشوار عذابي.

- لا بأس.

بعد نظرة تأملية فاحصة، كنت جالسة آنذاك أمامه مثل لوحة لفنان مبدع يجسد من خلالها وجهاً لامرأة بريئة، خجولة، واعتقدت أن جرأته بلغت حد الوقاحة حين خاطبك هازئًا

- أتريدين العمل هكذا؟

ونظرتِ لنفسكِ نفس النظرة التي حاولتُ تلاشيها كلما داعبتني الذاكرة ساخرة، أردتُ أن أخلع بعدها لباس ذاتي البالي وأفصل لكِ رداءً يطغى فلسفاتكِ الرثةِ ولكن عبثاً أنرت لدربي المسار.

تابع سخريته وهو يجتاح بجرأة موجات انفعالاتكِ المكبوتة

- أنت بحاجة إلى إعادة تأهيل، المكتب هنا واجهة، وأنت ذلك «المنكان» الذي يعطي الجو عبقه، ويشد الآخرين كمغناطيس جذاب، أريدك كل شيء في آن.

وبقيت كما أنتِ جالسة كنحت بارد تفتعلين ابتسامة ضاحكة باكية،وهو ما يزال ينقر بفأس كلماته مشاعرك الخرساء.

..... الذاكرة، أنتِ لا تتقنين يا ذاتي إلا ادخار الصمت وأنا أجيدُ لعبة الذاكرة وادخار وجه الكلمات الزاحفة، أواه ما أقساها، هي أعباء الإنسان الطليقة، هي إحدى التشوهات التي تحتضن الماضي والحاضر وتعجز عن المستقبل، ولكنها تترقبه بشغف كما تترصدني هي لتنتشلني إليكِ مرة أخرى، فأنا دميتها الوحيدة البلهاء، وساحة لتلقي على جسدي جميع قمامات النسيان الفاسدة.

هرعتُ إليكَ يا حبي الوحيد ذلك اليوم، وكطفلة تائهة ارتميتُ بين أحضانكَ، خلت أنك ستداعب وجنتي، فقد كنت دوماً مقبرة حزني الصبورة، وكهفا عميقا أختبئ به من براثنها هي، ذاتي، وتمسح عثرات الزمن عن مقلتي، وتملكتني دهشة، غبت خلف كواليس الصدمة، وأخذت أبحث كعمياء عن كذبة أحتمي بها من يقظتي المتأخرة، وفجأة بدوت لي مثل تمثال

خال من الانفعالات، ووجه بلا تضاريس، وأحاسيس جرداء، وكالأخرس حين يمتلك حاسة النطق سألتك:

- من أنت؟

بدوت لي كائناً غريباً، لست كمخلوقات كوكبي، شخصاً آخر من إحدى كائنات الكواكب التي قررت الانفصال عنها، أخذت تثرثر وتثرثر وأنا أنظر إليك بصمت، تماماً كما كنتِ أنتِ في تلك المقابلة من أجل العمل، أراقب شفتيك وهما يغدوان مضارب قد أتقنتا قذفي دون توقف، ألا يعيى البشر حرب الكلام؟ إنهم دائماً يتسلحون بالكلمات، وإني أتساءل أي بئر قادر على منحي مجلدات أكتسي منها ذخيرة لصد الكلمات، لمواجهة الأحرف والعبارات التعيسة.

- أنت مجرد فاصلة مثقلة تقفين في وجهي الآن وتطلبين مني التضحية بكل تمرد ونقمة، ماذا حققت؟ لا شيء أنت هامش في الحياة، مجرد متمردة تعتقد أنها تملك منطقا ما، تعيش بوهم الكواكب المنقرضة وخيال حده ضباب زائل، وأنا بت بطبعي أمقت الفتيات المتمردات،لأنهن يمتلئن سخافات تماماً كبالون وينفجرن عند أول مغرز.

وتموهت نظرتي إليك، وهرعت جرياً إلى أقرب مخبأ أدفن فشلي كنعامة صغيرة، وهناك وجدت قنطرتي، فهي أشبه بكوكبي، حائمة مثلي في أفق واسع، أخذت أتقيأ ذاتي، كبريائي، وأحلامي فوقها.

الذاكرة، الذاكرة..... تبا

كم بودي أن أمحو ذلك الشيء اللعين، خطر على بالي ليلة حين وصلت إلى ذروة الجنون بإجراء عملية جراحية لاستئصال الذاكرة، وبدأت

الفكرة تروق لي،وأخذت أتخيل الموقف أستقبل دون إرسال، فجعبتي فارغة تماماً لا أحزان ولا قصاصات عالقة هناك تذكرني أنني هامش حي، إذا سأكون مجرد طيف هائم بلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل، وأخال أن هذا بالضبط ما أسعى إليه سأتحرر منك، ومنها، سأعود فارغة، وأنطلق بلا حدود.

أما زلت هامدة هناك دون كلام، ألم يرهقك الإنصات، لما لا تخوضين تلك اللعبة؟ اهبطي إلى عالم يمقت اجتياز ممرات الصمت ويمقت كل تقليدي راحل.

– أنا رجل أعزب كما ترين، وأعشق الحرية، والمتعة، أريدك مثلي امرأة متحررة، عصرية، تشاركني نشوة جنوني، وتغضين النظر عن ثوراتي الشيطانية، أتستطيعين ذلك؟ وأن تمنحيني قبلة مع كل قهوة صباح، هل تطيقين صبراً لتلك الالتزامات اليومية؟

وتبادلنا الأدوار، وبكيت بعدها بعمق، وبقيت أنت بكفن صمتك عالقة هناك، وتمنيت لو كانت تلك الأرض التي وقفت فوقها مقبرة لأحفر جرفا عميقا وأدفن كوكبي شطراً شطراً دون توقف، وأنت ما زلت تفتعلين أضحوكة بلهاء، تعزلين خيوط صمتك بصمت، وأعتقد أنك خرجت بعدها شاردة، صفقت الباب خلفك بقوة، كما صفقت أنا انتكاسة أخرى.

فهرس

ألا توقفت لحظة... هناك صرخة 9
منعطف مزدوج 19
نساء في الزمن الصعب 29
المعذرة... هذا الطريق مغلق 37
قلوب من ورق 47
حذار 73
دعني أبرر قدري 81
ولعتمة القنديل ظل أحيانا 87
ليت للعمر بقية 99
ترهلات ذاكرة 109